



# البراجماتية الأدائية

عند جون ديوي

"عرض ونقد"

دكتور

عزة محمد مصطفى الجندي

مدرس العقيدة والفلسفة  
كلية الدراسات الإسلامية والعربية  
للبنات بالإسكندرية  
جامعة الأزهر



## ملخص الدراسة

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز مفهوم البراجماتية الأدائية عند جون ديوي ، ونظرتها للمعرفة والكون والصدق والحقيقة ، كما هدفت إلى بيان موقف الشريعة الإسلامية منها ، وقد عرضت في هذا البحث موقف جون ديوي من المعرفة والخبرة والعقل والقيم والأخلاق والدين ، وقد استخدمت أسلوب تحليل المحتوى وذلك لملاءمته لهذه الدراسة . وقد بينت أن ديوي أنطلق من المجتمع الأمريكي ، وحاول إصلاحه في شتى المجالات ، وقد أدرك ديوي أن ذلك لن يتأتى إلا إذا أخرج الفلسفة من نمطها التقليدي حتى تواكب التحول الذي شهدته الحياة في مختلف مناحيها .

وبناء على ذلك نظر ديوي إلى المعرفة بمعيار جديد ، فرفض الأفكار المثالية المتعالية ، وأكد على أهمية التجربة ، فاعتقد أن الإنسان كائن بيولوجي متطور عن مراحل متدرجة من التكيف مع البيئة ، واشتق ديوي من هذا الاعتقاد طبيعة المعرفة فرأى أنها ما يكيف الإنسان للبقاء ، وبذلك يصبح التفكير وسيلة لتحقيق التكيف ، ويصبح العقل هو القدرة على التكيف في المواقف الجديدة .

وقد أظهرت الدراسة أن الأدائية التي نادى بها ديوي ، والتي تعتبر امتداد وتطور للفلسفة البراجماتية تنطلق من مبادئ وأهداف تختلف عن مبادئ وأهداف الإسلام ، وذلك لنموها في بيئة تختلف عن بيئة الإسلام ، فهي لم تمنح الإنسان ما منحه المنهج الإسلامي من تكامل ووسطية بين الجانب المادي والروحي ، بالإضافة إلى القول بنسبية القيم وعدم إطلاقها ، واعتبار الخبرة الإنسانية المصدر الوحيد لهذه القيم ، بالإضافة إلى التركيز على النفع المادي للقيم دون الجانب الأخلاقي، وهذا ما يرفضه الإسلام .

وقد أظهرت الدراسة أن الأدائية تقطع الصلة بين الإنسان وبين خالقه ، بل وتؤدي في النهاية إلى تحويل الناس لذئاب بشرية ، لا يتواصلون إلا حيث يكون النفع ، وبذلك تختفي كل معان العطف والرحمة والتعاون بين الناس .

وقد أوصت الدراسة بضرورة التمسك بتعاليم الدين الإسلامي ، وتعزيز مبدأ النفع للآخرين ، وضرورة بناء أجيال متمسكة بدينها ، وإبراز فشل الأنظمة الوضعية في تحقيق السعادة للإنسان بالمقارنة مع الإسلام ، وإظهار مدى التدهور الأخلاقي الملحوظ لدى الأنظمة الغربية ، وذلك بترسيخ نهج القيم من مصادرها الشرعية .

## Study Summary

The purpose of this study was to highlight the concept of the Instrumental Pragmatism of John Dewey, and its view of knowledge, the universe, honesty and truth. It also aimed to demonstrate the attitude of the Islamic Shari'a. The research presented John Dewey's attitude on knowledge, experience, mind, values, ethics and religion. For this study. The content analysis method was used to suit this study. I explained that Dewey started from American society and tried to reform it in various fields. Dewey realized that this would only come about if he took philosophy out of its traditional style to keep up with the transformation of life in all its aspects.

Therefore, Dewey considered knowledge of a new standard. He rejected the transcendental ideals and emphasized the importance of experiment. He believed that man is a sophisticated biological organism with gradual stages of adapting to the environment. Dewey derived from this belief the nature of knowledge, Thinking means to achieve adjustment, the mind becomes the ability to adapt in new situations .

The study has shown that the instrumentalism advocated by Dewey, which is an extension . and evolution of pragmatic philosophy, are based on principles and objectives that differ from the principles and objectives of Islam, for their growth in an environment different from the environment of Islam. As well as, it did not grant the human being what the Islamic curriculum gave of the integration and moderation between the material and spiritual side, in addition to saying the proportion of values and non-launch, and to consider human experience the only source of these values, in addition to focus on the material benefit of values without the moral side, and this is rejected by Islam .

The study has shown that the Instrumentalism cut off the connection between man and his creator, and ultimately lead people to human wolves, who communicate only where they benefit, and thus all the meanings of compassion, compassion and cooperation among people disappear .

The study recommended the need to adhere to the teachings of the Islamic religion, promote the principle of benefit to others, the need to build generations adhering to its religion, and to highlight the failure of the systems of status in achieving happiness for man compared to Islam, and to show the extent of moral deterioration marked by Western .systems. By consolidating values from their legitimate sources

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

**أما بعد :** فإن الفكر الفلسفي يحتاج مجهوداً كبيراً في تحصيله ، ومجهوداً أكبر من ناحية توظيفه والاستفادة به ، ومن المؤكد أن الفلسفة الحديثة تمثل حلقة الربط بين الفلسفات القديمة و المعاصرة . ومن البين أن هذه الواسطة ضمت إلى جنباتها العديد من الأسماء اللامعة ، وبالتالي فإن الباحث يجد نفسه بحاجة إلى تناول ما خلفه هؤلاء المفكرون ودراسته والتعليق عليه وبيان دوره في التراث الحضاري إن كان له وجود ، وهذا مما دفعني إلى أن يكون موضوع تلك الدراسة هو " البرجماتية الأدائية عند جون ديوي عرض ونقد " .

لقد انطلق ديوي من الواقع الأمريكي ، وقد حاول إصلاحه في شتى المجالات ، حيث أن مشروع أي مجتمع ، والصورة المراد تجسيدها له ، تستوجب التأكيد على إصلاح بنياته البشرية لضمان استمراره وتطور أفرادها .

ولقد أدرك ديوي أن ذلك لن يتأتى إلا إذا أخرج الفلسفة عن نمطها التقليدي ، حتى تواكب التحول الذي شهدته ولا تزال تشهده الحياة في مختلف مناحيها ، ذلك ما يحتمه الواقع الأمريكي الذي عرف تحولاً سياسياً واجتماعياً مع بروز الثورة الأمريكية وظهور أفكار الثورات التنويرية في أوروبا ، القائمة على الحرية والمساواة ، وضرورة تغيير المجتمع الأمريكي وفق تلك القيم .

آمن ديوي بكل ذلك واقتنع بضرورة وضع فلسفة فعالة - من وجهة نظره - من شأنها أن تصلح المجتمع ، فكانت البرجماتية الأدائية أو الوسلية هي القاعدة الفلسفية الأساسية التي رفع لواءها ، وذلك بعد استقراره الفكري والفلسفي على التوجه البرجماتي بعد مراحل متباينة غلبت عليها في بدايتها النزعة المثالية ، ثم انزاحت إلى التجريبية ، لينتهي إلى تبني البرجماتية كمذهب عام والأدائية كتوجه متميز ومن هنا كان موضوع بحثي . ولكي يكتمل البحث لابد له من عدة خطوات

أولاً : أسباب اختيار الموضوع :

١- أن البرجماتية واحدة من التيارات التي لعبت دوراً حاسماً وخطيراً في تاريخ الفلسفة المعاصرة .

٢- أن جون ديوي اعتبر نفسه ممثلاً للحركة الفلسفية وسمح لذاته أن يكون مراقباً لها . بالإضافة إلى المكانة البارزة التي يحتلها في الفلسفة المعاصرة .

٣- حاول جون ديوي أن يكون له منهج متميز عن البرجماتية التي نقدها ، فكان له المنهج الأدائي منهجاً في التفكير استعاض به عن المناهج الأخرى السابقة عليه

٤- أراد أن يكون له نسق فلسفي ، فكتب دستوراً فلسفياً ، شرح فيه عقيدته الفلسفية وعلاقة الفلسفة بالحضارة ومهمة الفلسفة ووظيفتها .

٥- أن كثيراً من المفكرين العرب والمسلمين قد تأثروا بآراء تلك الفلسفة ، ونقلوها كما هي في كثير من الأحيان ، مع أن بعض الآراء تشكل خطورة على المجتمع الإسلامي ، وهذا لا يجوز لأن المجتمع الذي نشأت فيه هذه الفلسفة يختلف عن مجتمعنا الإسلامي ، ونحن أمة لها تراث عريق ، وقبل كل شيء وأهم من أي شيء ، لنا عقيدة كرنا الله سبحانه وتعالى بها ، كما قال في كتابه العزيز : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ..... " (١) .

٦- تسهم هذه الدراسة في تنوير المسلمين في فهم البرجماتية الأدائية ، ومعرفة أن العقيدة الإسلامية هي المنطلق الذي تبنى على ضوئه كافة مواقفنا الإسلامية .

ثانياً : منهج البحث :

من أجل معالجة هذا الموضوع اعتمدت منهجاً تحليلياً لإبراز مفهوم البرجماتية الأدائية ، إذ توجهت إلى كتب جون ديوي بالقراءة والتعليق وتحليل الأفكار والربط فيما بينها من أجل الوقوف على جوهر وحقيقة تلك الفلسفة إن صح هذا التعبير . كما استعملت المنهج المقارن ، بالإضافة إلى المنهج التاريخي ، وأخيراً المنهج النقدي لوضع تلك الفلسفة في الميزان .

(١) سورة آل عمران / آية " ١١٠ " .

ثالثاً مشكلة البحث :

١. ما هو مفهوم البرجماتية الأدائية عند جون ديوي ؟
٢. ما هي الأسس التي أقام عليها ديوي فلسفته ؟
٣. كيف يمكن النظر إليها من زاوية تقييميه ؟
٤. هل تتفق البرجماتية الأدائية مع تصوراتنا الإسلامية ؟

رابعاً : أهداف الدراسة :

- ١- إبراز مفهوم البرجماتية الأدائية ، ونظرتها للمعرفة والكون والصدق والحقيقة .
- ٢- تقرير أن العقيدة الإسلامية هي منطلقنا الوحيد الذي تتحدد على أساسه كافة مواقفنا الإسلامية .
- ٣- نقد البرجماتية الأدائية ، وتوضيح أن هذه الفلسفة لها مبادئ ومنطلقات وأهداف تختلف عن مبادئنا وقيمنا وأهدافنا وذلك لنموها ونشوتها في بيئة مغايرة بشكل كلي .

رابعاً المشكلات البحثية :

- ١- ندرة المادة العلمية .
- ٢- صعوبة الحصول على مؤلفات ديوي .
- ٣- قلة الكتابات عن ديوي في مجال الفلسفة .

خامساً : مكونات الدراسة :مقدمة :

تمهيد : بعنوان تحديد المصطلحات

- المبحث الأول : نظرية المعرفة عند جون ديوي في ضوء البرجماتية الأدائية .
- المبحث الثاني : أسس الأدائية " المنطق ونظرية البحث - نظرية الحق - الكون " .
- المبحث الثالث : الخبرة في ضوء البرجماتية الأدائية عند جون ديوي .
- المبحث الرابع : أحكام القيمة في ضوء البرجماتية الأدائية عند جون ديوي .
- المبحث الخامس : نقد البرجماتية الأدائية في ضوء العقيدة الإسلامية .

الخاتمة والنتائج :فهرس المراجع :

## تمهيد

### تحديد المصطلحات

لكي يتضح لنا فهم الفلسفة البرجماتية الأدائية عند جون ديوي ويسهل علينا تعريفها لابد لنا أن نمهد لها بأشياء ، من أهمها تعريف معنى كلمة البرجماتية بوجه عام :

**أولاً : مفهوم البرجماتية وأصل نشأتها :**

**مفهوم البرجماتية :** الفلسفة البرجماتية اسم يطلق على عدد من الفلسفات المختلفة<sup>(١)</sup> التي تشترك في مبدأ عام وهو أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه هذه الفكرة من نفع أياً كان نوع هذا النفع أو على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة . وقد اشتقت البرجماتية من اللفظ اليوناني *pragma* بمعنى فعل ونشاط وعمل وهو تيار في الفلسفة الغربية ، يرى أن المنفعة العملية للمعارف مصدر لها ومعيار رئيسياً لصحتها<sup>(٢)</sup> .

وجاء في المعجم الفلسفي أن البرجماتية : " مذهب فلسفي يقرر أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح ، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة ، أي أن كل ما يتحقق بالفعل فهو حق ... ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية " <sup>(٣)</sup> .

(١) من هذه الفلسفات : البرجماتية الإنسانية ، البرجماتية التجريبية ، البرجماتية الاسمية / البرجماتية البيولوجية ، وهذه الأخيرة ترتبط بعجون ديوي وترى أن الفكر إنما يهدف لمساعدة الكائن العضوي ليتوافق مع بيئته ، فالتأقلم الناجح المؤدي إلى البقاء والنمو هو بمثابة المعيار على صدق الأفكار . راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٤ / دار الثقافة للنشر والتوزيع / كلية الآداب - جامعة القاهرة / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م . . .

(٢) راجع إ . ف . بلاييرغا / المعجم الفلسفي المختصر / ص ٨٦ / ترجمة توفيق سلوم / دار التقدم / ١٩٨٦ م . راجع أيضاً إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / دار الوفاء للطباعة والنشر / الإسكندرية .

(٣) جميل صليبا / المعجم الفلسفي / ج ١ / ص ٢٠٣ / دار الكتاب اللبناني بيروت / ١٩٨٢ م . راجع أيضاً مجمع اللغة العربية / المعجم الفلسفي / ص ٣٢ / الهيئة العامة لشؤون المطابع / ١٩٨٣ م .



ويرشدنا الفيلسوف " جون ديوي " إلى ما تعنيه البراجماتية من ناحية الدلالة الاصطلاحية في قوله : " إنني أؤكد - على سبيل الجزم - أن لفظ براغماتي لا يعني إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل الاعتبارات التأملية إلى نتائجها " .<sup>(١)</sup>

يتبين من خلال ما سبق أن مدلول البرجماتية يتمثل في كونها قاعدة أو طريقة للتأكد والبحث والتثبت من المفاهيم وإخضاعها لمحك الاختبار.

وقد نشطت الفلسفة البراجماتية في الفكر الأمريكي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وخلال الربع الأول من القرن العشرين ، وأصبحت سمة مميزة للحياة والثقافة الأمريكية ، وقد فهم النقاد منها أنها حركة نقدية موجهة ضد الفلسفات الموروثة من أجل إرساء دعائم فكر أكثر إيجابية . وبهذا أصبحت البراجماتية هي الإسهام الأمريكي في الفلسفة العالمية .<sup>(٢)</sup>

### ١- مراحل البراجماتية

أول من استخدم كلمة البرجماتية فإن ديوي يشير إلى الفيلسوف والعالم الأمريكي " تشارلز ساندرز بيرس " <sup>(٣)</sup> ١٨٣٩ - ١٩١٤ ، <sup>(١)</sup> وذلك عندما نشر مقالة كتبها

---

راجع أيضاً مصطفى حسيبة / المعجم الفلسفي / ص ١١١ ، ١١٢ / ط أولى / دار أسامة للنشر والتوزيع / الأردن - عمان / ٢٠٠٩ م .

<sup>(١)</sup> محمد جديدي / فلسفة الخبرة جون ديوي نموذجاً / ص ١٨ / ط أولى / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / بيروت - لبنان / الإسكندرية / ٢٠٠٤ م .

<sup>(٢)</sup> راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ٦٩ / مرجع سابق .

<sup>(٣)</sup> تشارلز ساندرز بيرس : " ١٨٣٩ - ١٩١٤ م " فيلسوف البرجماتية الأول وواضع أسسها ، اتسمت نشأته الفكرية بطابع علمي ، وهو ابن أحد رواد أمريكا في العلوم الرياضية ، يكمن أثره الفلسفي في مساهمته الهامة في وضع القاعدة التي نهل منها الفلاسفة الذين ساروا على نهجه . راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ١٨٣ / ترجمة فؤاد كامل - جلال العشري - عبد الرشيد الصادق / دار القلم / بيروت - لبنان ، راجع أيضاً فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي / ص ٩٧ / ط أولى / دار الجيل / بيروت / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

عام ١٨٧٨ م ، بعنوان : " كيف نجعل أفكارنا واضحة " أشار فيها إلى قاعدته الشهيرة ، التي تنص على أن : " الحق يقاس بمعيار العمل المنتج وليس بمنطق العقل المجرد ، والفكرة عنده خطة للعمل أو مشروع له ، وليست حقيقة في ذاتها ..... والفكرة هي ما تنتهي إليه من نتائج وآثار ، وقد استشهد على صحة دعواه بأمثلة منها قوله : إننا نجهل حقيقة الكهرباء ولكننا نعرف ما تحققه لنا من منافع ، فمعنى الكهرباء يقوم في الآثار التي تتخلف عنها في حياتنا اليومية ولا عبءة بمعرفتنا العقلية لها " . (٢) كما أن فكرتنا عن النبذ أو عن العسل لا تعني شيئاً إلا ما له آثار معينة على حواسنا بشكل مباشر أو غير مباشر . (٣)

بمعنى أننا لكي نتأكد من وضوح أية فكرة ، علينا أن ننظر في الآثار والنتائج العملية التي تحققها في الواقع ، سواء كانت هذه النتائج مباشرة أو غير مباشرة ، وعلى ذلك فإن أهم ما يميز فلسفة " بيرس " أنها تجريبية لا تأملية . (٤)

وهذا يعنى أن " العمل مبدأ مطلق ، بحيث يلزم من ذلك أنه حر كل الحرية ، وأن لا شئ يعترضه ..... فيلزم أن يكون العالم مرناً نستطيع التأثير فيه وتشكيله ، وأن تصوراتنا وفروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل ، والمذهب العملي يقوم على هذا الأساس " . (٥)

(١) داجوبرت د . رونز / فلسفة القرن العشرين / مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة / ترجمة عثمان نوية / ص ٢٣٢ / مراجعة زكي نجيب محمود / مؤسسة سجل العرب / ١٩٦٣ م . راجع أيضاً محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ١٩ / مرجع سابق .

(٢) توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣٢٢ / ط الثالثة / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٨ م .

(٣) راجع فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي / ص ٩٧ . مرجع سابق . راجع أيضاً الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ١٨٣ / مرجع سابق .

(٤) راجع زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ / ط الرابعة / دار الشروق / ١٩٩٣ م .

(٥) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ / مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .

وكانت هذه المحاولة التي قام بها " تشارلز بيرس " ليوضح معنى الفكرة بالنظر إلى آثارها أو نتائجها العملية المترتبة عليها ، بمثابة الخطوة الأولى في إرساء قواعد المذهب البرجماتية العملي .

وقد طورها بعد ذلك الفيلسوف " وليم جيمس " (١) " ١٨٤٢ - ١٩١٠ " ، الذي عمل على توسيع نطاق البرجماتية ، ولم يرض بها كمنهج محكوم بقناعات نقدية ومنطقية ، فنقل مجالها إلى الأخلاق والدين ، ومنه يمكن القول أنه قد وسع من نطاق استخدام البرجماتية ، ويقال أن أكبر تقدم حققه " جيمس " هو نظريته في الاعتقاد ، أي " إرادة الإيمان " ، والتي سميت " حق الإنسان في أن يؤمن " ، إن تجرّيبته ستكون رافداً من الروافض التي شكلت فلسفة ديوي الوسيالية وستبدو تأثيراتها جلية على تطور منحني ديوي الفكري . (٢)

وكان ذلك من خلال كتابه الأول " مبادئ علم النفس " ( ١٩٧٠ ) حيث أنكر فيه جيمس " تأليف الوجدان من ظواهر منفصلة ، وبين أن الظواهر الوجدانية تجري في تيار متصل ، ويجب اعتبار الدماغ " آلة نقل " تصل الجسم بقوى وجدانية مابينة للقوى الجسمية ، كما أنه يجب الاعتراف بأن أعم قانون في علم النفس هو قانون المنفعة " . (٣)

(١) وليم جيمس : " ١٨٤٢ - ١٩١٠ م " ثاني فليسوف عمل على وضع أسس البرجماتية ، ويعود إليه الفضل في التعريف بها ونشرها ، والده هنري جيمس ، روائي ومفكر ، كان له أثره الكبير على الابن جيمس ، في تقويم العبارة وشحنه بالأثر الديني ، لقد كان اهتمام جيمس في بداية حياته منصباً على دراسة الطب وعلم النفس ، كما أن التوفيق بين الإيمان الديني والفكر العلمي ، شكل أهم المسائل التي راودت ذهنه ، فصدرت له مؤلفات تتم عن هذا التوفيق ، ومن أبرزها : مبادئ علم النفس ، إرادة الاعتقاد ، البرجماتية . راجع جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة " الفلاسفة - المناطقة - المتكلمون - اللاهوتيون - المتصوفون " ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ / ط الثالثة / دار الطليعة للطباعة والنشر / بيروت / م ٢٠٠٦ .

(٢) راجع محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٣٣ / مرجع سابق .

(٣) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٤٤ ، ص ٤٤٣ / مرجع سابق .

ثم جاء الفيلسوف الأمريكي " جون ديوي " " ١٨٥٩ - ١٩٥٢ " ليطور هذه الفلسفة ، ويحاول أن يضع منطقاً للتفكير البرجماتي . (١) " فرأي أن الحياة توافق بين الفرد وبيئته ، ولهذا فإن العقل ليس أداة معرفة بل أداة ترقية للحياة ، وصواب المعتقد مرهون بأثره وبقيمته المنصرفة كما قلنا ، وبهذا اتسع معنى البرجماتية فأصبح صواب الفكرة أو المبدأ ، معناه تكييفه مع حياة الآخرين ومعتقداتهم وليس مع حياة الفرد العملية فحسب " . (٢)

والبراجماتية في معناها العام الذي قدمه " ديوي " : " هي النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة ... إنما تتحدد في حدود الاعتبار العملية أو الغرضية ، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدد في حدود الاعتبار النظرية التأملية الدقيقة أو الاعتبار الفكرية المجردة " . (٣)

والمدقق في هذه الحركة الفلسفية يلاحظ أنها ليست في جوهرها مذهباً فلسفياً بالمعنى الدقيق ، بل هي أقرب إلى أن تكون طريقة في التفكير تحاول وضع معيار للتمييز بين ما هو حق وما هو باطل في الأفكار والمعتقدات " ولحسم المنازعات الميتافيزيقية " (٤)

وأخيراً فإن تلك الفلسفة لعبت دوراً خطيراً في الفلسفة المعاصرة ، وكان لها أثر واضح في الفكر المعاصر ، وقد حظيت باهتمام كبير من جانب الفلاسفة ، إذ وقفوا إزاء

(١) راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤١ / مرجع سابق .

(٢) توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣٢٤ / مرجع سابق .

(٣) محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤١ / نقلاً عن

Beek. Philosophy, Maenillan Publishing Co. New York, 1979, p.121

R N., Handbook in Social

(٤) وليم جميس / البراجماتية / ص ٦١ ، ٦٣ / ترجمة محمد على العريان / دار النهضة العربية /

القاهرة ١٩٦٥ م . راجع أيضاً محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٣ / مرجع سابق .

مبادئها وما يترتب عليها مواقف متباينة ، وكثر الجدل حول أصلاتها الفلسفة <sup>(١)</sup> وقيمتها في تاريخ الفكر الإنساني ، حتى شبه بعض المؤرخين المقام الذي تشغله في الفلسفة حتى السنوات الأخيرة بالمقام الذي يشغله الطفل المزعج في البيت .

<sup>(١)</sup> أثار بعض النقاد الكثير من الشكوك حول الأصالة الفكرية لهذه الفلسفة ، ورأوا فيها مجرد انعكاس لطبيعة المجتمع الأمريكي ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولذلك جعلوا المصدر الأول لهذا الاتجاه الفلسفي هو طبيعة الحياة الأمريكية ذاتها بصناعتها الضخمة وتجاراتها الهائلة . راجع محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٢١ / مرجع سابق .  
إلا أن بعض الباحثين حاولوا التماس أصول هذه المدرسة من تاريخ الفكر الفلسفي القديم والحديث على حد سواء ومن هذه الأصول :

- ١- السفسطائيون : الذين أقروا بأن الخبرة الحسية تختلف من فرد إلى آخر ، مما دعا " بروتاجوراس " ٤٨١ - ٤١١ ق.م " أحد شيوخ السفسطائية ، أن يضع قاعدته الشهيرة " الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " ، فأدى بهم هذا الاعتقاد إلى الجنوح نحو الذاتية والنسبية في كل شئ خاصة الأخلاق والدين والمعرفة . راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ٧٨ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٥ / مرجع سابق .
- ٢- أفلاطون وأرسطو : خاصة فيما يتعلق بتركيز أرسطو على التجربة بوصفها مكوناً ضرورياً من مكونات المعرفة .
- ٣- كانت وأوجست كونت : فقد ساعد كانت البرجماتييين على التمييز بين أنشطة العقل الخالص وأنشطة العقل العملي ، وكان لهجوم كانت على الميتافيزيقا التقليدية أثر لا يمحي في رفض البرجماتييين للميتافيزيقا والتهكم عليها ، وساعد أوجست كونت على تعميق اتحاد الفكر مع العمل ، وإقرار المنهج العلمي أساس التجربة الأصيلة أو المتطرفة لدى البرجماتييين .
- ٤- الإنجازات العلمية الهائلة التي عاشتها وعایشها البرجماتييين خلال القرن التاسع عشر والعشرين ، بالإضافة إلى انتشار نظريات علمية جديدة ، مثل نظرية دارون في المجال البيولوجي ، وأنشطين في مجال الفيزياء والفلك . راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٦ ، ٥١ / مرجع سابق .

## ٢- نشأة البرجماتية :

مما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن الدوائر التي لعبت دوراً بارزاً في نشأة الفلسفة البرجماتية يحصرها كثير من الذين كتبوا عن تاريخ الحركة البرجماتية في دائرتين اثنتين هما : النادي الميتافيزيقي ومدرسة شيكاغو .

١. النادي الميتافيزيقي : يعتبر هذا النادي المهتم الذي نشأت فيه تلك الحركة الفلسفية من خلال المناقشات التي كانت تدور بين أعضائه<sup>(١)</sup> ما بين سنوات ١٨٧٠ م - ١٨٧٦ م في مدينة كمبردج .

و لم تكن تسمية الميتافيزيقي التي حملها هذا النادي تمت بصلة إلى الميتافيزيقياً<sup>(٢)</sup> ، وإنما كلمة ميتافيزيقي تعني عندهم نوعاً من السخرية والتحدي للميتافيزيقياً وللتيار الهجيلي<sup>(٣)</sup> خاصة .<sup>(١)</sup>

٥- هناك من يذهب إلى محاولة ربط البرجماتية بالماركسية ، بالنظر إلى تأكيد كل من الفلسفتين على العمل واعتبار وظيفة الفلسفة هي التغيير. راجع محمد جندي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً / ص ٢١ / مرجع سابق .

<sup>(١)</sup> كان هذا النادي يضم عدد من الأعضاء منهم جيمس بيرس ، بالإضافة إلى بعض رجال القانون مثل نيكولا سان جون غرين ، وعلماء اجتماع مثل سبنسر ، إلى غير ذلك من الأعضاء غير المشهورين لقلّة كتاباتهم . راجع محمد جندي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٢٧ / مرجع سابق . راجع أيضاً إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ٧٠ / دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر .

<sup>(٢)</sup> الميتافيزيقي: أو علم ما بعد الطبيعة هو العلم الذي يتأمل الموجودات اللامحسوسة والماورائية ، وهي عموماً بحث المطلق واللامشروط ، بحث في المبادئ والعلل الأولى لجميع الأمور . راجع جلال الدين سعيد / معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية / ص ٤٦٠ / دار الجنوب للنشر / فلسطين / ٢٠٠٤ م .

<sup>(٣)</sup> التيار الهجيلي : نسبة إلى جورج فيلهلم فريدريش هيغل ولد في ١٧ أغسطس ١٧٧٠م - ١٤ نوفمبر ١٨٣١ م فيلسوف ألماني ، وأحد أهم الفلاسفة الألمان ، حيث يعتبر أهم مؤسس للفلسفة المثالية الألمانية ، كان لفلسفته أثر عميق على معظم الفلسفات المعاصرة . راجع جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة / ص ٧٢١ / مرجع سابق .

٢. مدرسة شيكاغو : هي المدرسة التي أسسها " ديوي " عندما ذهب إلى مدينة شيكاغو في منتصف عمره ، والتف حوله جماعة من المفكرين شكلوا نواة الأداتية ، فأثمرت جهودها في سنة ١٩٠٣م كتاب " دراسات في النظرية المنطقية " الذي أهدوه بعد ذلك إلى " جيمس " . (٢)

هذا وبعد أن تعرفنا على مدلول تلك اللفظة وأصل نشأتها ، يجدر بنا أن نتطرق إلى تعريف المصطلح الثاني من مصطلحات هذا البحث ، ألا وهو مصطلح الأداتية .

### ثانياً : تعريف مذهب الأداتية أو الوسيلية :

عدل ديوي عن استخدام الكلمة براجماتزم واطعاً كلمة أخرى هي " الأداتية أو الوسيلية " ليشير إلى اتجاه براجماتي خاص به . وقد اشتهرت فلسفته بالذرائعية (٣) أو الأداتية . (٤) فالمذهب الأداتي : هو المذهب الذي مثل فكرة ديوي البراجماتية فيما يتعلق بالحقيقة .

والحق أن هذا المذهب ليس مذهباً بقدر ما هو منهج ارتآه " ديوي " أساساً للمعرفة الصحيحة . ومن الملاحظ أن " ديوي " يمتاز على " جيمس " بأنه وجه اهتماماً كبيراً للمنطق ، وصرح كثيراً بأنه يؤسس قواعد منطق تجريبي ، فينبغي أن تشتق كل القواعد والمبادئ المنطقية من التجربة أو من تفاعل الإنسان مع البيئة .

وبهذا يمكننا فهم مقصد ديوي الوسيلي يقول : " الوسيلية محاولة لتأليف نظرية منطقية دقيقة في التصورات والأحكام والاستدلالات في صورها المتنوعة ، بالانتباه أولاً

(١) راجع محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٢٧ ، ٢٨ / مرجع سابق . راجع أيضاً مشهد سعدي العلاف / مقدمة في فلسفة العلم " بناء المفاهيم بين العلم والمنطق " / ص ١٢٦ ، ١٢٧ / ط أولى / دار عمار - عمان / دار الجيل - بيروت / ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

(٢) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ص ٧٠ / مرجع سابق /

(٣) الذرائعية : كلمة تدل على الفعل . راجع أندريه لالاند / موسوعة لالاند الفلسفية / ص ١٠١٢ وما بعدها / ترجمة خليل أحمد خليل / ط أولى / منشورات عويدات / بيروت - باريس / ١٩٩٦ م .

(٤) حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ١٠٨ / مركز الإسكندرية للكتاب / جامعة صنعاء / قسم الفلسفة / ١٩٩٧ م .

إلى وظيفة الفكر في تحديد النتائج المستقبلية تحديداً تجريبياً . ومعنى ذلك .. أن المذهب الوسلي ليس نظرية في هذا الحكم أو ذاك الجزئي المرتبط بمادته الخاصة ولا بما يتضمنان من أشياء جزئية ، وإنما هي تأسيس نظرية في الصور العامة للأفكار والاستدلالات " . (١)

ويمكن شرح المذهب الأدائي باختصار في أنه " ليس هناك حقيقة قائمة بذاتها أبداً بل إن كل حقيقة إنما هي خطوة في طريق متسلسل طويل يؤدي في النهاية إلى حل لمشكلة معينة ، وهذا الحل الأخير نفسه يستحيل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها ، بل إنه سرعان ما يصبح حلقة في سلسلة فكرية جديدة يراد بها حل إشكال جديد " . (٢)

وفكرة الأدائية جاءت رداً على النظريات التقليدية للحقيقة (٣) ، والتي كانت ترى أن هناك حقائق أزلية ، وثابتة ، نهائية كاملة وخالدة ، فجاء بفكرة تقول : أنه " بدلاً من الركون إلى الحقائق الثابتة المتعالية لابد من النزول إلى الوقائع الموجودة في عالم التغيير ، والتي تكتسب بالخبرة " . (٤)

وسميت هكذا لأنها تعتبر الأفكار وسائل وأدوات وذرائع يتكيف بها الإنسان مع محيطه ، وهي خطط ومشروعات للعمل يقاس مدى نجاحها وفعاليتها بمقدار ما تؤدي

(١) جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / وهي إحدى مقالات كتاب فلسفة القرن العشرين / داجويرت د. رونز " مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة / ص ٢٤٧ / ترجمة عثمان نوية / مؤسسة سجل العرب / ١٩٦٣ م .

(٢) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٠٣ ، ١٠٤ / دار المعارف القاهرة / ط ١٩٦٨ ، راجع أيضاً إ . م بوشنسكي / الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ص ١٦٢ / ترجمة عزت قرني / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / عالم المعرفة / ١٩٩٠ م .

(٣) والمقصود هنا : الفلسفة المثالية التي كانت سائدة في إنجلترا وأمريكا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وخاصة فلسفة هيغل التي تأثر بها الفلاسفة البرجماتيين في بداية حياتهم ، وتتميز فلسفة هيغل بالاعتقاد بأن العقل دون سواه هو ما يستطيع أن يخبرنا بالكثير عن عالم الواقع . راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٥٥ / مرجع سابق . راجع أيضاً زكي نجيب محمود / برتراندرسل / ص ٣٤ / دار المعارف القاهرة / ١٩٦٨ م .

(٤) أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٦ ، ٧ / مرجع سابق .



إليه من تحقيق أغراض الكائن البشري في التكيف والتوازن والملاءمة مع بيئته الاجتماعية والمادية ، وذلك باعتمادها عنصري الذكاء والخبرة في (١) .

وهذا يعني أن " ديوي " جعل المعرفة أداة للعمل ووسيلة للتجربة . (٢) ومن هنا يمكن فهم مذهب " ديوي " البراجماتي ، وهو مذهب منطقي يهدف إلى تحديد النتائج المستقبلية للأفكار. حيث جعل قيمة الأفكار فيما وراءها من عمليات جزئية حسية ، وبمعنى آخر أراد ديوي أن يجعل للفكرة نتائج عملية هي مجموعة من العمليات الجزئية . **ثالثاً : منشأ المذهب الوسلي :**

إذا أردنا أن نتبع المذهب الوسلي عند " ديوي " رأينا كامناً في فكرتين : فكرة قال بها وليم جيمس ، وأخرى نادى بها كثيرون .

فالفكرة التي أخذها " ديوي " من " جيمس " هي أن الأفكار الصادقة هي ما لها أثر على السلوك، واستخدام جيمس هذا الأساس في حل مشاكل الدين والأخلاق فرأى أن الفكرة التي يؤدي الاعتقاد بها إلى تكيف الإنسان في حياته الدينية والعاطفية فكرة صحيحة . وقد عتب ديوي على جيمس أنه حصر هذا الأساس في المجال الانفعالي فحسب ، وأراد أن يسير بأساس جيمس إلى نهايته من وجهة منطقية .

يقول ديوي : " ..نرى أن جيمس كان ينظر إلى الأفكار والنظريات على أنها وسائل نافعة في تكوين الوقائع المقبلة بطريقة معينة . لكن اتجه جيمس برأيه إلى المظاهر الخلقية لهذه النظرية ، .... ولم يحاول أن يتقدم بنظرية كاملة في الصور والتراكيب للعمليات المنطقية المؤسسة على الأفكار " . (٣)

(١) جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / ص ٢٤٧ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمد جديدي "

فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٣٦ / مرجع سابق .

(٢) راجع المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية / ص ٥ / مرجع سابق .

(٣) جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / ص ٤٦٣ . مرجع سابق .

أما ما أخذه ديوي من الأستاذ " بردجمان " <sup>(١)</sup> فهو المذهب الإجرائي وخلصته أن معنى أي تصور قائم في مجموعة من عمليات أو أن التصور ما هو إلا مجموعة متسقة من الإجراءات . <sup>(٢)</sup> هاتان الفكرتان وجهتا " ديوي " نحو القول بالمذهب الوسلي ، حيث أراد أن يجعل الأفكار والنظريات وسيلة لمعرفة منطقية لا لعقائد عاطفية .  
وإنه لما يعيننا على فهم وجهة النظر التي أخذ بها ديوي ، أن نذكر لمحة من حياته ، تلقي ضوءاً على أصول تفكيره .

### رابعاً : حياة جون ديوي : أولاً : ولادته ونشأته :

جون ديوي " ١٨٥٩ - ١٩٥٢ م " : فيلسوف أمريكي ذائع الصيت ، ولد في ولاية " فرمونت " في العشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩ م . وهي السنة نفسها التي أصدر فيها " دارون " <sup>(٣)</sup> كتابه أصل الأنواع والذي يمكن أن يعد فاصلاً بين عصرين ثقافيين ، عصر قبله يتصور العالم سكونياً ثابتاً ، وعصر ثقافي بعده يجعل حقيقة العالم متغيرة ومتطورة ومتحركة . <sup>(٤)</sup> وقد لعب هذا الكتاب دوراً كبيراً في فلسفة ديوي فيما بعد . <sup>(٥)</sup>

- <sup>(١)</sup> بردجمان : ( ١٨٤٤م - ١٩٠٦ م ) عالم نمساوي ، ولد في الفيتنام ، صاحب المذهب الإجرائي . راجع دورديت / بلدجمان أواخر حياته وفلسفته / ص ٥ / دار النشر بلا كمور / ١٩٩٥ م .
- <sup>(٢)</sup> راجع محمود زيدان / وليم جيمس / ص ٢١٠ / دار المعارف بمصر / سلسلة نوابع الفكر الغربي .
- <sup>(٣)</sup> تشارلز دارون : ( ١٨٠٩ م - ١٨٨٢ م ) : ولد في إنجلترا ، يعد من أشهر علماء علم الأحياء ، ألف عدة كتب فيما يخص هذا الميدان ، صاحب نظرية التطور التي طرحها في كتبه عن أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي . راجع نبيل موسى / موسوعة مشاهير العالم / ج ٢ / ص ١٧١ / ط أولى / دار الصداقة العربية / بيروت / ٢٠٠٢ م .
- <sup>(٤)</sup> راجع ول ديورانت / قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي " حياة وآراء أعظم رجال الفلسفة في العالم " / ص ٢٢٦ / ترجمة فتح الله محمد المشعشع / ط السادسة / مكتبة المعارف بيروت / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- <sup>(٥)</sup> راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٩ / مرجع سابق . راجع أيضاً الموسوعة الفلسفية المختصرة / نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل - جلال العشري - عبد الرشيد الصادق / ص ٢٠١ / مرجع سابق .

ولد ونشأ في أسرة زراعية ريفية في ولاية بأقصى الشمال الشرقي في الولايات المتحدة الأمريكية<sup>(١)</sup> وقد امتهن والده الفلاحة ، ولم يستطع أن يحصل على تعليم مدرسي منظم ، فشب ناقص التعليم ضعيف الثقافة المدرسية ، ما عدا الحصول على أوليات القراءة والكتابة ، وبعض المعلومات العامة السطحية التي استطاع أن يكتسبها باتصاله الشخصي بالناس.<sup>(٢)</sup> غير أنه كمل نفسه بالإطلاع ، فقرأ شكسبير وملتون ، إذ كان يتغنى ببعض عبارتهما الأدبية التي حفظها عن ظهر قلب .<sup>(٣)</sup>

### ثانياً : دراسته :

دخل جون ديوي المدرسة الابتدائية وكان منطوياً على نفسه ، خجولاً قليل الاختلاط بزملائه ومدرسيه ، وكان من أضعف الطلاب في دروسه ، فاتهم بالبلادة وضعف التفكير .<sup>(٤)</sup>

إلا أنه بعد ذلك أخذ بالتحسن وبالأخص في المرحلة الثانوية ، إذ بدأ يعمل بعدة أعمال كبائع للصحف المسائية التي تصدر في مدينة " برلينجون " بالإضافة إلى الاشتغال بترقيم الأخشاب التي ترد من كندا ، كما كان يشارك في أعمال البيت ، وقد أثرت هذه النشأة الأولى في فلسفته التربوية ، إذ نادى بعد ذلك أن تكون المدرسة مشاركة في الحياة وأن تمهد لها . دون أن تقتصر على موضوعات جافة نظرية بعيدة عن واقع الحياة .<sup>(٥)</sup>

تخرج من المرحلة الثانوية عام ١٨٧٥ م ، وقد تلقى تعليمه الجامعي في جامعة " فرمونت " وتخرج منها عام ١٨٧٩ م ، ثم انتقل إلى جامعة " جون هوبكنز " حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٨٨٤ م . ثم عمل مدرساً للفلسفة بجامعة "

(١) راجع زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ٢١٩ ، ٢٢٠ / مرجع سابق .

(٢) راجع نوري جعفر / جون ديوي / ص ١ / مطبعة الزهراء - بغداد / ١٩٥٤ م .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٢٠ / مرجع سابق .

(٤) راجع نوري جعفر / جون ديوي / ص ٥ / مرجع سابق .

(٥) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٢١ / مرجع سابق .

متشيجان " في الفترة ١٨٨٤ م - ١٨٨٨ م ، وفي الفترة ١٨٩٤ م - ١٩٠٤ م انتقل ديوي إلى جامعة شيكاغو ، والتي كانت قد تأسست وقتئذ ، وعين فيها رئيساً لقسم الفلسفة والتربية .<sup>(١)</sup>

وقد رأى القوم في " شيكاغو " لا يؤمنون بالجلوس الهادئ على كراسي ثابتة القوائم ، يدرسون نظريات لا تسمن ولا تغني من جوع ، بل يؤمنون بالعمل اليدوي الدؤوب الذي لا يفتر لحظة عن الإنتاج . فأثر ذلك في تفكيره وجعله يؤمن بأن مقياس الصواب هو النتائج ، فما كانت نتيجته نجاحاً في حل المشكلات العملية فهو الصواب ، وأن كل شئ في حياة الإنسان قابل للتغير ، ولا مفر من تغييره إذا دعت الضرورة إلى ذلك التغير ، وكذلك لا بد من تغيير أسس السياسة والاقتصاد والتربية وكل شئ مما قد يظن به الدوام والثبات ، في سبيل تغيير الحياة تغييراً يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الحديث .

انصرف ديوي باهتمامه أول الأمر إلى التربية يمعن النظر في أسسها وطرائقها ، وقد أسس مدرسة تقدمية ، وكتب كثيراً عن التربية ، وقد لخص ما كتبه في كتاب له بعنوان " المدرسة والمجتمع " وذلك عام ١٨٩٩ م ، والذي يعتبر أعظم كتاباته تأثيراً ، وقد استمر يكتب عن التربية طوال حياته ، بنفس القدر الذي كان يكتب به الفلسفة .<sup>(٢)</sup>

ثم تلا ذلك كتاب آخر هو " الديمقراطية والتربية " وذلك عام ١٩١٦ م ، بين فيه أن التربية هي أن ننشئ الناشئ على سرعة الموامعة بين نفسه وبين البيئة ، لا على أن يحافظ على التقاليد القديمة مهما تكن آثارها على حياته العملية الجديدة .<sup>(٣)</sup>

ومن الوجهة الفلسفية تكمن الأهمية الرئيسية لعمل ديوي في نقده للتصور التقليدي للحقيقة ، وقد تجسم هذا في فلسفته التي سماها الأدوات أو المذهب الواسيلي الذي نحن بصدد الحديث عنه .

(١) راجع فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي / ص ١١٥ ، ١١٦ / مرجع سابق . راجع أيضاً أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٥ / مرجع سابق .

(٢) راجع زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ص ٢٢١ ، ٢٢٢ / مرجع سابق .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٣٥ ، ٣٦ / مرجع سابق .

ثالثاً : من تأثر بهم :

تأثر ديوي في فلسفته بعدة مؤثرات ، تتمثل في النقاط التالية :

١- البيئة الأمريكية : لدرجة أن أحد الفلاسفة يقول : " ما من إنسان غير جون ديوي يستطيع أن يمثل تمثيلاً صادقاً عقلية السواد الأعظم من المواطنين الأمريكيين المغامرين المعروفين بالحماس وحدة المزاج . وقد أقام وحده مذهباً فلسفياً وأصبح قوة علمية مهيمنة ونافذة ، ، وتقبل المجتمع الصناعي والتقنية العلمية كميديان يمكن أن تصقل فيه الفلسفة الحقيقية وتمتحن " .<sup>(١)</sup>

٢- الفلسفة الهيجيلية : والواقع أن ديوي لم يكن براجماتياً منذ بداية حياته الفكرية ، فقد تأثر في بادئ الأمر بأفكار هيجل الميتافيزيقية ولم يكن له بد من ذلك ، لأنه لم يجد حوله إلا أساتذته يذهبون في الفلسفة هذا المذهب ، فأخذ عنهم . وقد علمه هيجل أن الواقع عملية تنتهي إلى غاية هي الوصول إلى الوجود المطلق ، وأن مطلب الإنسان وسعيه نحو الحقيقة جزء من أداء هذه العملية ، وعلمه أيضاً أن الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان في تطور ونمو ، وأن غايته الوصول إلى المطلق أي مطابقة الفكر لعقل خالد منذ البداية .

ولكن ديوي كان - بالإضافة إلى ميوله المطلقة - ذا روح علمية تجريبية إذ كان يعتقد أن مناهج العلوم الوضعية ، ينبغي أن تكون أساس البحث الفلسفي ، ولذلك ثار على فلسفة هيجل المطلقة أو لاءم بين ما فيها من أسس وما وصل العلم إليه من نتائج . أخذ من هيجل أن الواقع عملية وأن الحقيقة التي يهدف إليها الإنسان متطورة . وأنكر عليه أن الواقع يتجه إلى مطلق ، وأن الحقيقة الإنسانية تطابق حقيقة مطلقة خالدة ، بل أعلن ما هو أكثر من ذلك إذ يقول إن الوجود ليس نسقاً ثابتاً

<sup>(١)</sup> جورج سانتيانا / مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى / ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين / ص ١١٤ / دار الأفاق الحديثة / بيروت . راجع أيضاً محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٢٢ / مرجع سابق .

وليس نسقاً على الإطلاق ، وإنما هو جملة من الأشياء المتغيرة التي تنمو وتتطور على الدوام . " (١)

٣- ولیم جیمس : " كان كتاب ولیم جیمس " مبادئ علم النفس " الذي صدر ١٧٩٠ " هو الضوء الذي اهتدى به " ديوي " في تشكيل منهجه وخطته في التفكير والبحث ، فلم يكن ذلك الكتاب مجرد كتاب في علم النفس كسائر الكتب ، بل كان فاصلاً بين عهدين في ذلك العلم . " (٢)

ويتلخص هذا الكتاب في أنه " ينكر تأليف الوجدان من ظواهر منفصلة ، ويبين أن الظواهر الوجدانية تجري في تيار متصل ، ويجب اعتبار الدماغ " آلة نقل " تصل بالجسم قوى وجدانية مباينة للقوى الجسمانية ، ويجب الاعتراف بأن أعم قانون في علم النفس هو قانون المنفعة ، فإن أفعالنا التلقائية مرتبطة بالطبع لخيرنا " . (٣)

٤- نظرية التطور لدارون : " لقد انتفع ديوي بنظرية التطور لدارون وبمبادئ علم النفس لولیم جیمس في الوصول إلى نظرية تطورية للعقل الإنساني ، حين رأى أن العقل ليس جوهرًا ممايزاً للبدن ، وإنما العقل وظيفة أو موجه لغرض ، ومحقق لهدف هو تحقيق التكيف البيولوجي ، وأنه وسيلة للإنسان في الملاءمة بينه وبين ما حوله من بيئات . " . (٤)

فإذا أضفنا إلى تأثير هيجل ودارون وجيمس معاصرته لبيرس ، وقبوله للمعيار البراجماتي في الصدق أمكنني أن أرى تلك المؤثرات مدخلاً لفهم فلسفة ديوي .

(١) محمود زيدان / ولیم جیمس / ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ / دار المعارف مصر / سلسلة نوابغ الفكر الغربي .

(٢) راجع زكي نجيب محمود / حياة الفكر في العالم الجديد / ص ١٦٦ / ط الثالثة / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م / دار الشروق .

(٣) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٤٣ / مرجع سابق / بتصرف .

(٤) محمود زيدان / ولیم جیمس / ص ٢٠٧ / مرجع سابق .

**رابعاً : مكانة الفلسفة :**

إذا كانت شهرة جون ديوي قد ذاعت على الأخص باعتباره مفكراً تربوياً يروم إصلاح مناهج التربية على أساس آراء اجتماعية متشددة في شأن الطابع الاجتماعي للتربية ، إلا أن فلسفته هي الأخرى أثرت تأثير بعيد المدى في الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي بعض الأماكن الأخرى ، وظلت فلسفته لمدة طويلة تعتبر أقوى عقلية في تلك البلاد التي تتخذ من التكنولوجيا إلهاً . (١)

وبسبب مكانة ديوي الكبيرة في الفكر الفلسفي في الولايات المتحدة بوجه خاص ، وفي العالم أجمع بوجه عام ، وخاصة اسهاماته في مجال التربية والمكتبات ، ووجه الفيلسوف الأمريكي الجنسية البريطاني الأصل " ألفريد نورث هويتهد " (٢) كلمة تحية إليه عندما نشر أحد الفلاسفة كتاب عن فلسفة ديوي عام ١٩٣٩ م . جاء في تلك الكلمة " الفلسفة صناعة واسعة غير محدودة تحقق خدمات كثيرة لتقدم الإنسانية ، وجون ديوي يجب أن يوضع في مرتبة الذين جعلوا الفكر الفلسفي موافقاً لحاجات زمانهم ، وهو من هذا الوجه يرتفع إلى مصاف قدماء الرواقين ، وأوغسطين ، والإكويني ، وفرنسيس بيكون ، ولوك ، وديكارت ، وأوجست كونت ، ولا تقوم شهرة هؤلاء القوم على مذاهبهم الخاصة التي يبتهج بها الدارسون ، وإنما كانت نتيجة أعمالهم أن تلقت معظم النظم الاجتماعية في زمانهم دفعة من التنوير يسرت لها تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من أغراض ....وقد أدى جون ديوي للحضارة الأمريكية خدمات شبيهة بذلك ، حين كشف عن الأفكار العظيمة المتصلة بعمل النظام الاجتماعي " . (٣)

(١) راجع إ . م . بوشنسكي / الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ص ١٦٢ ، ١٦٣ / مرجع سابق .

(٢) ألفريد نورث هويتهد : فيلسوفاً انجليزياً وعالم رياضياً ، ولد في ( ١٥ من فبراير ١٨٦١ م - ٣٠ من ديسمبر ١٩٤٧ م ) كتب في الجبر والمنطق وكذلك في فلسفة العلوم والفيزياء . راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ٤٩٤ / مرجع سابق .

(٣) فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي المعاصر / ص ١١٧ / مرجع سابق

وكان ديوي يرى نفسه أنه الفيلسوف الأمريكي الوحيد المعبر عن الفلسفة الأمريكية ، وبالتالي عن الثقافة الأمريكية ككل ، حمل لواءها نصف قرن من الزمان .

(١)

#### خامساً : مؤلفاته :

ترك ديوي عبر مسيرة عمره مؤلفات عديدة متنوعة ترجم العديد منها إلى اللغة العربية ، وسوف نذكر بعضاً منها فيما يلي :

- ٣ . علم النفس وقد نشره في عام ١٨٨٧ م .
- ٤ . دراسات في النظرية المنطقية ، وقد نشره في عام ١٩٠٣ م .
- ٥ . كيف نفكر ، وقد نشره في عام ١٩١٠ م .
- ٦ . مقالات في المنطق التجريبي ، وقد نشره في عام ١٩٢٠ م .
- ٧ . إعادة بناء الفلسفة ، وقد نشره في عام ١٩٢٠ .
- ٨ . الطبيعة البشرية والسلوك ، وقد نشره في عام ١٩٢٢ م .
- ٩ . التجربة والطبيعة ، وقد نشره في عام ١٩٢٥ م .
- ١٠ . البحث عن اليقين ، وقد نشره في عام ١٩٢٩ م .
- ١١ . الفن خبرة ، وقد نشره في عام ١٩٣٩ م .
- ١٢ . المعلم والمجتمع ، وقد نشره في عام ١٩٣٧ م .
- ١٣ . التجربة والتربية ، وقد نشره في عام ١٩٣٨ م .
- ١٤ . نظرية التقويم ، وقد نشره في عام ١٩٣٩ م . (٢)
- ١٥ . خلاصة نظرية نقدية في الأخلاق ، عام ١٨٩١ م .
- ١٦ . دراسة علم الأخلاق ١٨٩٧ م .
- ١٧ . الشروط المنطقية لدراسة الأخلاق دراسة علمية ، ١٩٠٣ م .

(١) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٢) راجع فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي المعاصر / ص ١١٧ / مرجع سابق .



سادساً : وفاته :

في اليوم الأول من شهر يونيو من عام ١٩٥٢ ، مات ذلك العالم ، عن عمر يناهز الثانية والتسعين عاماً ، في مدينة نيويورك على أثر إصابته بمرض ذات الجنب ، بعد أن قدم عطاءً مهماً خدم به مذهبه . (١)

---

(١) راجع فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي المعاصر / ص ١١٧ / مرجع سابق ، راجع أيضاً زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ / مرجع سابق .

المبحث الأولنظرية المعرفة عند جون ديوي في ضوء البراجماتية الأدائية

لقد انتهى ديوي إلى " أن وظيفة الفلسفة تتجلى في الدور الذي يجب أن تنهض به في سبيل حل مشاكل الإنسان " (١) عن طريق تغيير الواقع لا بتفسيره كما عهدته الفلسفات السابقة ، والذي يتم بتغيير الناس أنفسهم حتى يتمكنوا من إنشاء القوانين التي تتماشى وظروفهم المتغيرة ، إنه تغيير يقوم على إحداث ثورة على الواقع برفض كل القيم الفاشلة - من وجهة نظره - التي أفضت إليها الفلسفات المجردة . (٢) هذه الوظيفة لا يمكن للفلسفة أن تؤديها إن بقيت حبيسة التصور الكلاسيكي في المعرفة ، حيث أن هذا التصور أبعد الحقيقة عن واقع الإنسان وخبراته ، ولم يساير ما تثيره الحياة من قضايا بفعل التطور الحاصل في مختلف ميادينها .

وبناء على ذلك نظر " ديوي " إلى المعرفة بمعيار جديد يواكب التقدم العلمي الذي عرفته الإنسانية ، فرفض الأفكار المثالية المتعالية ، وأكد على أهمية التجربة . فاعتقد أن الإنسان كائن بيولوجي متطور عن مراحل متدرجة من التكيف مع البيئة ، واشتق ديوي من هذا الاعتقاد طبيعة المعرفة فرأى أنها ما يكيف الإنسان للبقاء . وبذلك يصبح التفكير وسيلة بيولوجية لتحقيق التكيف أو يصبح العقل هو القدرة على التكيف في المواقف الجديدة (٣) . ولكي يتم فهم هذه النظرية عند جون ديوي لابد أن أتحدث عن ثلاثة أشياء تعتبر هي الأدوات الرئيسية في تكوين المعرفة لدى جون ديوي ، ألا وهي العقل ، الفكر ، الخبرة ، مع الأخذ في الاعتبار أنه نظراً لأهمية الخبرة في فلسفة ديوي فقد أفردت لها مبحثاً مستقلاً .

(١) محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٢١٨ / مرجع سابق .

(٢) راجع توفيق الطويل / فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها / ص ٢٩٩ / ط الرابعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨١ م .

(٣) راجع البار عبد الحفيظ / فلسفة التربية عند جون ديوي / ص ٢٤ / رسالة ما جستير / جامعة منتوري / الجزائر / ٢٠٠٩ م .

أولاً: العقل عند جون ديوي :

إن ديوي ينظر إلى العقل نظرة بيولوجية ، فالعقل موجود ليساعد عضواً ما على التفاعل مع بيئته بطريقة مناسبة ، وهو موجود كذلك لتعديل وإعادة بناء تلك البيئة . فالعقل عنده أداة لفهم العالم وتغييره ، فهو ليس ملكة منفصلة عن التجربة أو قدرة متعالية تقتادنا إلى عالم أسمى يضم سائر الحقائق الكلية ، وإنما العقل باطن في الطبيعة مثله كمثل شيء آخر له دلالاته ووجوده في صميم التجربة ، فهو يربط الوعي بالطبيعة مباشرة ، ولا يقيم أي وزن للفرقة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة ، فهو لا يوافق على هذه النظرية الإغريقية المثالية .

يقول ديوي : " ليس العقل شيئاً قائماً بذاته ، مختلفاً عن الجسم في جوهره ووظائفه ، ولا هو وظيفة من وظائف الدماغ ، ولكن وظيفة من وظائف الجسم كله عند تفاعله مع البيئة الاجتماعية والطبيعية أثناء سعيه لتحقيق أهدافه في الحياة ، وعن طريق التغلب على ما يعارض سبيله من مشاكل وصعوبات " . (١)

والعلامة الدالة على وجود العقل في أي ظاهرة سلوكية هي أن نلاحظ فيها استهدافاً لغايات مستقبلية ، واختياراً للوسائل المؤدية إلى بلوغ تلك الغايات . (٢)

ويفهم من هذا :

أن العقل سلوك ذو طابع معين ، وليس هو الكائن الروحاني الغيبي الذي يختلف عن الجسم الحي الفعال ، كما هو الرأي عند الفلسفة المثالية ، وعند ديوي نفسه في المراحل الأولى من حياته . لأنه كان إبان تلك المرحلة - كما أسلفنا - هيجلي الاتجاه في فلسفته .

(١) جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٦٩ / ترجمة أمين مرسي قنديل / مراجعة زكي نجيب محمود / مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) راجع زكي نجيب محمود / حياة الفكر في العالم الجديد / ص ١٦٦ / مرجع سابق .

أن القيم والغايات التي بمقتضاها يعمل الإنسان ويسعى ، إما أن تكون جزءاً لا يتجزأ من طبيعة العالم الخارجي نفسه أو تكون من خلق الإنسان ، وهي على كلا الفرضين ليست شيئاً سابقاً بوجوده على وجود العالم الطبيعي أو المجتمع . (١)

إن ديوي يؤكد على دور العقل النشط في اكتشاف الأشياء ، ورفض أن يكون العقل مجرد جهاز سلبي يقوم بتلقي المعلومات الجاهزة دون القيام بأي مجهود ، فالتفاعل بين الإنسان وبيئته أمر ضروري ، واستخلاص العبر أمر بالغ الأهمية في عملية اختبار المعرفة .

يقول ديوي " إن وظيفة العقل ليست مجرد نسخ الأشياء الموجودة في البيئة بل أن تأخذ في الاعتبار من العلاقات ما هو أفضل في هذه الأشياء وأصلح لها في المستقبل ، فالأداتية تجعل للتفكير وظيفة وضعية ، وهي إعادة تكوين الحالة الراهنة للأشياء لا مجرد معرفتها أو اتخاذ نسخة منها . فالتفكير واسطة لاستجابات معقدة مع مؤثرات البيئة " . (٢)

والسعادة الإنسانية تتحقق بقدرة العقل على تغيير أفكار المجتمع بما يتماشى والتقدم العلمي ، حيث يبدو العقل في نظر ديوي ليس أداة للمعرفة وإنما وسيلة للحياة . (٣) كما تبدو قيمة الفرد كبيرة في أداتية ديوي بل في الفلسفة البراجماتية ككل ، إذ تضعه في الاعتبار الأول لأنه يحمل الفكر المبدع ويصنع العمل ويصاحب تطبيقه ، فهو بعقله مهم في كل تغيير وتطور ، ذلك أن عقله -

(١) المرجع السابق / ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) راجع جون ديوي / الديمقراطية والتربية / ص ٣٤٧ / ترجمة متى عفرابي - زكريا ميخائيل / ط الثانية / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . راجع أيضاً أحمد فؤاد الأهواني / ص ٩٢ / ١٩٦٠ م .

(٣) راجع يعقوب فام / البراجماتيزم / أو مذهب الذرائع / ص ١٥ / ط الثانية / دار الحدائق للطباعة والنشر والتوزيع / ١٩٨٥ م .

حسب ديوي - جزء من الطبيعة يحاول دائماً التكيف معها ، وهو بذلك قابل للتربية قبول الطبيعة للتغير والتحول . (١)

غير أن ديوي لا يرى في العقل وحده أداة أو وسيلة لتقدم الحضارة ، وإنما يدخل معه أيضاً الطبيعة والحواس والشعور والإرادة ، فكل مظاهر الحياة هي أدوات ووسائل ، ولذا فإنه ينتقد الفلاسفة الذين يفصلون بين المادة والروح ، أو المادة والصورة .

إذ يؤكد وجود تفاعل بين الإنسان والأشياء المادية في العالم من خلال حواسه وأفعاله الناتجة عن إرادته ووعيه ، ويؤكد عدم وجود تعارض بين مواد الطبيعة وبين الوعي بقوله : " إن الذهن هو الوسيلة التي تصبح المشاركة بمقتضاها فعالة مثمرة عبر الإحساس ، أو هو الواسطة التي تستخرج عن طريقها المعاني والقيم لكي تُستبقى وتُخترن ، وتُجهز لما يستجد من خدمات في مضمار عمليات اتصال المخلوقات الحية بالبيئة المحيطة بها " . (٢)

وبذلك اعتُبر ديوي العقل أداة جيدة بقدر ما يسمح لنا بالتحكم والسيطرة على الطبيعة ، ولا تتحقق هذه الغاية النفعية إلا إذا تضافرت العقول لبلوغ هذا الهدف ، ولذلك ينبغي استبعاد فكرة اشتغال العقل على مقولات أو مبادئ أولية سابقة على التجربة . (٣) وديوي هنا يعارض " المثالية التي ترى أن الحقيقة قابعة في الذهن بشكل معطى سلفاً ، والواقعية التي ترى أنها مودعة في الأشياء بشكل مستقل عنا " . (٤)

(١) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٩٤ / مرجع سابق .

(٢) جون ديوي / الفن خبرة / ص ٤٠ ، ٤١ / ترجمة زكريا إبراهيم / دار النهضة العربية القاهرة / ١٩٦٣ م .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٨٠ / مرجع سابق .

(٤) حسن محمد الكيلاني / فلسفة التقدم " دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ " / ص ١١٤ ، ١١٥ / مركز الإسكندرية للكتاب / ١٩٩٧ م . .

وبذلك ربط ديوي المعرفة العقلية والنشاط الاجتماعي برباط وثيق ، أما العقل المجرد أو الذات الفردية ، فيجب استبعادها من مجال الفلسفة إذ يجب أن تتعلق المعرفة بالملاحظة المنظمة لظروف المجتمع .

يقول : " ينبغي أن نستبعد الفكرة القائلة بأن المعرفة خارج النشاط الاجتماعي وأنها تفرض عليها فرضاً ، بل المعرفة هي ذاتها صورة من هذا النشاط كالزراعة أو النقل ، ولما كانت فكرة العقل قد اتصلت من قديم بنظريات المعرفة ، وكذلك فكرة الذات الفردية ، فيجب استبعادها من مجال الفلسفة . أما الطريق الصحيح للمعرفة فهو الملاحظة المنظمة (١) للظروف الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية التي بها تسير المعرفة " . (٢)

وهنا تظهر علاقة الأدائية بالتجريبية التي دعت إلى القول ، بأن التجربة هي مصدر المعرفة ، وقد كان لآراء كل من " فرنسيس بيكون " ( ١٥٦١ - ١٦٢٦ م ) " وجون لوك ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ م ) أثرها البالغ في تأسيس المدرسة التجريبية التي

(١) الملاحظة : هي " المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما ، مع الاستعانة بأساليب البحث والدراسة التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة ، وتعتبر الملاحظة جزءاً جوهرياً من المنهج التجريبي . " والمقصود بالملاحظة المنظمة : الملاحظة العلمية التي يقوم بها العالم بخلاف الملاحظة الفجة ، التي يقوم بها الرجل العادي . محمود قاسم / المنطق الحديث ومناهج البحث / ص ٧٩ ، ص ٨٢ / ط الثانية / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م . ومن الملاحظ أن جون ديوي متأثر بكل من " فرنسيس بيكون " ، و " جاليليو " ، و " كوبرنيك " ، حيث ساهم كل منهم بنصيب وافر في خلفية التفكير البراجماتي ، فنجد عند فرنسيس بيكون العديد من النظريات التي قال بها البراجماتيون المحدثون ، فقد أدرك بيكون الدور الأساسي الذي تلعبه الملاحظة في مجال المعرفة ، ورفض جميع صور المذهب العقلي . راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٧ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمود قاسم / المنطق الحديث ومناهج البحث / ص ١٥ وما بعدها / مرجع سابق . وقد صرح " وليم جيمس " بانتمائه لهذه المدرسة ، يقول : " لوك باركلي وهيوم قد أسهموا بقسط كبير في خدمة الحقيقة بواسطة البراجماتية ، إن البراجماتية تمثل اتجاهاً مألوفاً تماماً في الفلسفة ألا وهو الاتجاه التجريبي " وليم جيمس / البراجماتية / ص ٧٠ / مرجع سابق .

(٢) أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٨٠

أعطت دوراً مهماً للتجربة وذلك لتخليص العقل من أوهامه التي يسميها بـ "أصنام العقل". فالعقل عنده "أداة تجريد وتصنيف ومساواة ومماثلة إذا ترك يجري على سليقته انقاد لأوهام طبيعية فيه ومضى في جدل عقيم يقوم في تمييزات لا طائل تحتها". (١)

ومن الملاحظ أن جون ديوي متأثر بكل من "فرنسيس بيكون"، و"جاليليو"، و"كوبرنيك"، حيث ساهم كل منهم بنصيب وافر في خلفية التفكير البراجماتي، فنجد عند فرنسيس بيكون العديد من النظريات التي قال بها البراجماتيون المحدثون، فقد أدرك بيكون الدور الأساسي الذي تلعبه الملاحظة في مجال المعرفة، ورفض جميع صور المذهب العقلي. (٢) وقد صرح "وليم جيمس" بانتمائه لهذه المدرسة، يقول: "لوك باركلي وهيوم قد أسهموا بقسط كبير في خدمة الحقيقة بواسطة البراجماتية، إن البراجماتية تمثل اتجاهاً مألوفاً تماماً في الفلسفة ألا وهو الاتجاه التجريبي". (٣)

ومع اتفاق الفيلسفتين في الاعتماد على الحس والتجربة دون العقل، إلا أن هناك فروق بينهما، فالأدائية تؤكد على دور العقل ولا تلغي دوره المعرفي، فالتفكير العقلي مرحلة من مراحل التجربة، حيث يكون هذا التفكير في لحظة استراحة نضع خلالها الفروض، ثم نعود بها إلى الواقع للتأكد من صحتها ونفعها، فالأدائية تتجاوز قضية التجربة إلى الأثر النافع.

وتظهر هنا أيضاً علاقة الأدائية "بالدورانية" التي جعلت من الفرد كائناً فردياً يصارع الطبيعة من أجل البقاء، ويسعى إلى استخدام جميع طاقاته وإمكاناته

(١) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٧ / ط الخامسة / مكتبة الدراسات الفلسفية / دار المعارف .

(٢) راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٧ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمود قاسم / المنطق الحديث ومناهج البحث / ص ١٥ وما بعدها .

(٣) وليم جيمس / البراجماتية / ص ٧٠ / مرجع سابق .

البيولوجية ليبقى على قيد الحياة معتمداً في ذلك على المعرفة التي اكتسبها من خلال تجربته الذاتية في أثناء هذا الصراع . (١)

وقد ألف ديوي كتاباً كاملاً سماه " البحث عن اليقين " (٢) عالج فيه تطور المعرفة ووسائلها ، وكانت معالجته وفق منظور مادي خالص ، طبق فيه نظرية دارون على الفكر والمعرفة وجعل سعي الإنسان إلى تحصيل المعرفة ، إنما هو بدافع بيولوجي ، هو افتقاره للأمن ، ثم جعل المحصلة النهائية لذلك السعي هو في وصول هذا الكائن البيولوجي إلى استخدام المنهج التجريبي القائم على أسلوب البحث العلمي للوصول إلى المعرفة التي تحقق اليقين ، مستغلاً في ذلك ذكاؤه الفطري في تحصيل ما ينفع وتجاوز ما يضر .

إن الأدوات مثل البراجماتية ثورة أخرى على المعرفة ، حيث " أن الطريق الموصول إلى المعرفة عندها ليس العقل ، وإنما هو السلوك أو الفعل " . (٣)

مما سبق يتضح أن العقل ينظر إليه باعتباره أداة للسيطرة على البيئة لإنتاج أي أثر عملي ، على أن العقل في حد ذاته استبدل في الفلسفة الوسيطة بمفهوم آخر وهو الذكاء ، وسوف نتحدث عن ذلك إن شاء الله عند حديثي عن الخبرة ، ومدى العلاقة التي تربط بينها وبين العقل ، نتقل الآن للحديث عن مكانة الأفكار عند ديوي . وأهميتها في تكوين المعرفة لدى الكائن الحي .

### ثانياً : الأفكار عند جون ديوي :

لقد جعل جون ديوي الأفكار أداة لتغيير الواقع ، وأخضعها للمحك العملي ، فالتأكد من صحتها أو زيفها فكرة جوهرية في المنهج البراجماتي الأداتي .

(١) راجع ول ديورانت / قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي / ص ١٠٨ ، ١٠٩ / مرجع سابق .

(٢) جون ديوي / البحث عن اليقين / ترجمة أحمد فؤاد الأهواني / تقديم محمد مدين / المركز القومي للترجمة / ٢٠١٥ م .

(٣) يحيى هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ص ١٥٦ / ط التاسعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع /



و يعتبر ديوي الأفكار وسائل وأدوات وذرائع يتكيف بها الإنسان مع محيطه ، وهي خطط ومشروعات للعمل يقاس مدى نجاحها وفعاليتها بمقدار ما تؤدي إليه من تحقيق أغراض الكائن البشري في التكيف والتوازن والملاءمة مع بيئته الاجتماعية والمادية . (١)

ويرى أن : الفكر " ما هو إلا أداة من أجل العمل ، ولا يبدأ الإنسان في التفكير إلا حين يصطدم بصعوبات مادية يكون واجباً عليه التغلب عليها ، وبالتالي فإن الأفكار ليس لها إلا قيمة أداتية أو وسلية وحسب ، ومن هنا جاءت تسمية مذهب ديوي بالذرائعية " . (٢)

أما التصورات بالنسبة له فهي الأدوات العقلية التي أتت لإدراك المعنى وتوضيح ما هو غامض فيما يتعلق بما هو مادي ، ومعنى هذا أن التصورات والنظرات أدوات تنحصر قيمتها فيما لها من قدرة على اقتيادنا نحو وقائع وخبرات مستقبلية ، وعلى ذلك يرى ديوي أن التفكير في جوهره حل للمشكلات ، وأن المعرفة ليست سوى عملية مواجهة لمواقف تتطلب الحلول . (٣)

يقول ديوي في ذلك : " حاولت جهدي أن أكشف عن القوى والعوامل التي تجعل إعادة التفكير في المشكلات العقلية أمراً لا بد منه وأن أرسم له بعض الخطوط والاتجاهات التي ينبغي أن يسير فيها التفكير " . (٤)

إن وظيفة الأفكار إنما تنحصر في فائدتها ، بوصفها أدوات أو وسائل لحل المشكلة ، فالتفكير عبارة عن عملية فحص للأفكار ، من أجل العمل على التحقق من وجود علاقة بينها وبين الموقف .

(١) راجع جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / ٢٤٧ / مرجع سابق .

(٢) إ . م . بوشنسكي / الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ص ١٦٢ / مرجع سابق .

(٣) راجع جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / ص ٢٤٧ / مرجع سابق راجع زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٥ / مكتبة مصر / دار مصر للطباعة .

(٤) جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ٧ / مرجع سابق .

ولكي نفهم التفكير ينبغي أن نلاحظه وهو ينشأ في مواقف خاصة ، وهو يبدأ من مواجهة الكائن الحي للمشاكل والمصاعب التي تصادفه فيأخذ في تكوين افتراضات يسترشد بها ، وبعد ذلك يُخضع هذه الافتراضات إلى الملاحظة والتجربة .

فالتفكير لا يبدأ إلا حيث توجد مشكلة ويراد حلها ، فهو ليس عملية احتراق تلقائي ، إنه لا يوجد إلا حيث تكون هناك حاجة ومناسبة تدعو إليه . (١) والذي يساعدنا على التفكير ليس هو الهدوء والسكون بل التحرك نحو الهدف ، ونحن نتوقف عن التفكير إذا ما حلت المشكلة ، ولن نستأنف التفكير إلا إذا عرضت مشكلة جديدة . (٢) وديوي هنا ينفي التفكير المجرد أو التفكير في ذاته ، وبناء ديوي لمذهبه نظريا لا يتماشى مع فكرته .

يقول يوسف كرم : إذا اعتبرنا المعرفة آلة أو وظيفة تظهر في الكائن الحي عندما يصادف عقبة ، وتقوم في جُهد لتذليل العقبات ، بدت الفكرة فرضاً في سبيل العمل ، وكانت الفكرة الحققة هي التي ترشدنا ، فالقول بأن الطبيعة معقولة ليس مبدأ نظرياً ، ولكنه اعتقاد يتيح للنشاط المعقول أن يغير الطبيعة ، فمذهب ديوي إذن ضرب من البراجماتية ، وقد دُعي أدائية لاعتبار المعرفة والفكر آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة . (٣)

" من أجل هذا كانت نظريات العلم فروضاً احتمالية أو ترجيحية وليست معرفة يقينية ، وهكذا انصرف العمليون عن البحث في المبادئ الأولى والعلل البعيدة إلى النظر في ثمار الأفكار ونتائجها وآثارها في دنيا التجربة " . (٤)

(١) راجع عبد الرحمن بدوي / موسوعة الفلسفة / ج ١ / ص ٥٠٠ / ط أولى / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ١٩٨٤ م .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٢٥ / مرجع سابق ، راجع أيضاً جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ص ١٩٧ / ترجمة أنور عبد الملك / ط الثالثة / دار الحقيقة - بيروت / ١٩٧٨ م .

(٤) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٦٣ / ط أولى / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٣ م .

فالأحكام العقلية المجردة لا وجود لها ، ولا ينصرف لفظ فكرة إلا على تلك الفكرة المحققة تجريبياً والناتج عنها أثر عملي ، فالأحكام العقلية المكونة من موضوع عقلي ومحمول عقلي لا وجود لها في الواقع ، والمعرفة يجب أن تكون موضوعية ، ولا يتحقق لها ذلك إلا إذا تحققت في الواقع التجريبي الملموس . (١)

فالفكر يحتل منزلة عالية في فلسفة ديوي ، ولكن ليس بمعناه المعتاد ، بل هو المحقق تجريبياً والمقدم نفعاً سواء للفرد أو الجماعة ، وحينئذ تكون المعرفة صحيحة وصادقة ويقينية أما الفكر المجرد عن الواقع ، أو المتعلق بالواقع ولكنه لم يقدم نفعاً ، فحينئذ أفضل وصف له أنه وهم وخداع ولا يستحق وصف المعرفة ، وهذه هي الغاية المرتجاة من الأدائية . (٢)

وعلى ذلك فإن ديوي :

١- يجعل الأفكار " ذرائع " يستعين بها الإنسان في تحقيق غاياته وأهدافه ، فالفكرة تعتبر خطة للعمل ، ويجب أن يميز بين الفكرة الخاطئة والفكرة الصائبة ، فالصائبة هي التي تنتهي بنا إلى ما نبتغي ، أما الخاطئة فهي التي لا تؤدي إلى الغاية المقصودة ، إذن التحقق من صواب الفكرة وخطئها لا يتم في الخلاء ، وإنما يكون في نسيج الواقع ، هذا الواقع الذي لا نراه دائماً متفقاً مع أهدافنا ، فنلجأ إلى تغييره بما يتفق مع مصالحنا ، ولكن بماذا نغيره ؟ نغيره بأفكارنا . فإذا لم تكن الأفكار أدوات تساعد على ذلك فهي لغو وباطل ، ومن المستحيل فصل الأفكار النظرية عن تطبيقها العملي ، " فالفكر والعمل أحدهما مكمل للآخر ..... ولا تفكير إذا ظل الإنسان سابحاً في فكره بعيداً عن دنيا الحوادث الخارجية ، لأنه حينئذ يكون حالماً " . (٣)

(١) راجع هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ص ١٥٩ / مرجع سابق .

(٢) وما ذهب إليه ديوي هو نفس ما ذهب إليه الوضعية المنطقية . راجع في ذلك بوشنسكي / تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ص ٨٨ / مرجع سابق ، راجع أيضاً زكي نجيب محمود / نحو فلسفة علمية / ص ٢٠٨ / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / ١٩٥٨ م .

(٣) زكي نجيب محمود / حياة الفكر في العالم الجديد / ص ١٦٨ ، ١٦٩ / مرجع سابق .

٢- يُعرف التفكير بالوظيفة ، وبالعامل الذي يؤدي ، والنتائج التي تترتب عليه . (١)  
 ٣- الأفكار عنده تختلف فيما بينها عن طريق المنفعة بغض النظر عن البناء الذاتي للفكرة .

٤- تتمثل الحقيقة في كل نافع ومفيد سواء أكان هذا النفع للفرد أم للجماعة .  
 وبناء على ما سبق تصور البعض أن البراجماتية تعد فلسفة نفعية ذاتية ، ونحن نعتقد أن هذا التصور نتاج لفهم خاطئ للمنهج البراجماتي ؛ فالصحيح أن البراجماتية امتداد للمنهج العلمي التجريبي عندما تعتمد على الواقع لإثبات صحة أفكارنا . (٢)  
 إلا أن جون لويس يقول : " إن ديوي ليس تجريبياً . اللهم إلا من حيث أنه يعمل بواسطة معطيات عينية ؛ وهي عنده تصاغ دائماً لا محال في تركيبات إنسانية وتمنح حقيقتها وصفاتها من جراء ذلك الذي فعلناه بها " . (٣)  
 ويؤكد ديوي " المرة تلو الأخرى أن أفكاره إنما هي رد فعل عكسي ليس فقط ضد المثالية المصطبغة بالعقلية (٤) وبمذهب الوحدة (٥) ، بل وضد كافة الفلسفات المثالية . إن ديوي يقف نفس موقف جيمس في قوله بأننا نصنع العالم بالعمل " . (١)

(١) راجع حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم " دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ " / ص ١٠٩ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ص ٢٣٤ / مرجع سابق .

(٤) المثالية : " هي المذهب القائل بأن حقيقة الكون أفكار وصور عقلية ، وأن العقل مصدر المعرفة ، فأفلاطون مثالي بتصوره عالماً عقلياً قوامه أفكار بمثابة النماذج للموجودات الجزئية المادية التي في عالمنا المحسوس ، والعالم العقلي عنده هو الحق ، أما العالم المحسوس فأشبهه بالظلال ، وباركلي مثالي بقوله أن حقيقة الشيء هي إدراك العقل له ، ومالا يدركه العقل عدم ، وكانت مثالي حين جعل المقولات العقلية شرطاً للمعرفة ، وهيكل مثالي حين قال أن حقيقة الكون روح مطلق يعبر عن نفسه في الوجود المنشود " . مصطفى حسبية / المعجم الفلسفي / ص ٥١٨ / مرجع سابق .

(٥) مذهب الوحدة : " الواحدية مذهب فلسفي يرد جميع الأشياء إلى مبدأ واحد ، سواء أكان ذلك من ناحية الجوهر أم من ناحية القوانين المنطقية أو الطبيعية ، ومذهب الواحدية مقابل لمذهب الاثنينية ،

" فالمثالية تزعم وجود قوة عاقلة تريد أن تحقق ذاتها في داخل التجارب الإنسانية ، أما البراجماتية فإنها جهد للتخلص من بعض المآزق الواقعة التي تهددنا ، وذلك عن طريق التفكير الذي هو أداة للسيطرة على البيئة . وهي سيطرة تتم عن طريق أفعال ما كان يمكن القيام بها لولا حل سابق لموقف معقد إلى عناصر مؤكدة وإمكانيات مستقلة مصاحبة لذلك ، أو بعبارة أخرى لولا التفكير " (٢).

ويعبر ديوي عن ذلك في كتابه البحث عن اليقين بقوله : " إن من يقر بالمثالية يرى أن الفكر خالق الكون وأن الأفكار المعقولة تكون بنيتها ، أما العالم التجريبي الذي نعيش فيه من يوم لآخر يتصف في عناد بالامثالية ؛ لأنه ليس إلا مظهراً للحقيقة التي صنعها الفكر . (٣)

وعلى ذلك فإن الأفكار والنظريات والنظم الفكرية ، مهما بلغت من الاتساق ، يجب أن تعد فروضاً ليس إلا ، فلا تقبل إلا على أنها أساس لأفعال ، بحيث تكون هذه الأفعال هي معيار لصدقها ، لا على اعتبار أنها حقائق نهائية . ومعني إدراك هذه الحقيقة والأخذ بها إلغاء الاعتقادات القطعية واستبعادها من الدنيا . ومعناه أيضاً أن نتبين أن المدركات العقلية والنظريات ونظم الأفكار ، قابلة دائماً لأن تتطور وترقي عن طريق استعمالها . فهي تعلمنا وجوب اليقظة والتنبه إلى كل الدلائل التي تقتضي تغيير هذه المدركات ، وإلى انتهاز الفرص التي تسنح لتأكيدا وإقرارها . (٤)

" إننا حين نأخذ مثال التجربة العملية في مجالها الخاص ، نجد أن التجريبية لا تعني غياب الأفكار والأغراض الواسعة ، بل إنها لتعتمد عليها في كل نقطة ، غير أن

ومذهب التعدد . " جميل صليبا / المعجم الفلسفي / ج ٢ / ص ٥٤٨ / دار الكتاب اللبناني / ١٩٨٢م . راجع أيضاً مصطفى حسبية / المعجم الفلسفي / ص ٦٧٨ / مرجع سابق .

(١) جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ص ١٩٦ ، ١٩٧ / مرجع سابق . راجع أيضاً أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٠٤ / مرجع سابق .

(٢) أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٠٤ / مرجع سابق .

(٣) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٣٣ / مرجع سابق .

(٤) راجع جون ديوي / تجديد الفلسفة / ص ٢٤٦ / مرجع سابق .

التجربة تولد الأفكار والأغراض في حدود إجراءاتها الخاصة وتختبرها بعملياتها الخاصة . فإذا بلغنا هذا المبلغ ظفرنا بإمكان تجربة إنسانية في شتى وجوها ، تكون فيها الأفكار والمعاني مقدره ومتولدة ومستخدمة باستمرار ، ولكنها ستكون متكاملة مع مجرى التجربة ذاتها لا مجلوبة من أصل خارجي عن حقيقة متعالية " .<sup>(١)</sup>

وعلى ذلك فإن موضوع المعرفة حادث ، أي أنه ثمرة عمليات تجريبية موجهة بدلاً من شئ موجود قبل فعل المعرفة .<sup>(٢)</sup> " فهجوم ديوي الرئيسي موجه إلى فكرة " الكمال القبلي " <sup>(٣)</sup> بأسرها . فكرة الواقع الذي بلغ درجة المعقولة الكاملة والذي لا يقبل التغيير أو التنقيح . وعند ديوي أن هذه الفلسفة هي الفلسفة التأملية لطبقة تتمتع بالفراغ ولا تساهم في العمل اليديوي " .<sup>(٤)</sup>

" وهنا يهاجم ديوي كل تصور ميتافيزيقي سابق ، يجعل العقل وقوانينه ، فوق السلطات ، مثلما تفعل الفلسفة الكانطية .... بل ويهاجم الفلاسفة على مختلف مذاهبهم واتجاهاتهم . الذين يضعون فاصلاً وحداً بين عالمي الخبرة والعقل ، بين الطبيعة والذات ، وهذه القطيعة يرجعها ديوي إلى جذور يونانية ، بحيث لم تكن في الأصل موجودة ، وإنما أوجدتها الفلسفات الأفلاطونية في تقسيمها للوجود إلى عالمين واحد أعلى وآخر أدنى . والأرسطية في تصنيفها للمعرفة إلى صنفين صنف نظري وصنف عملي ، وهذا نتيجة فشلها في إقرار توازن يتكامل فيه المعرفة والعمل " .<sup>(٥)</sup> " وهنا تقف العقلانية

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٦٤ ، ١٦٥ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ١٩٧ .

(٣) قبلي : القبلي هو السابق على التجربة سبقاً منطقياً ولا يفسر بالتجربة . وعند أرسطو : القبلي هو الحكم الذي يصدر عن العلم بعلة الشئ من حيث إن العلة متقدمة بالطبع على المعلول . وقيل معنى ناشئ من النشاط التلقائي للعقل دون الإهابة بالتجربة ، وقبله في مقابل بعدي / راجع مراد وهبة / المعجم الفلسفي / ص ٤٩٠ / مرجع سابق .

(٤) جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ / مرجع سابق .

(٥) جون ديوي / الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني / ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ / ترجمة محمد لبيب النجيجي / مؤسسة الخانجي - القاهرة .

كفلسفة وكمنهج في مواجهة التجريبية التي ترى أن المعرفة اليقينية تنبع من التجربة لا من العقل " .<sup>(١)</sup>

إن النظرة الأداتية للمعرفة عند جون ديوي لا تعترف بالتمييز الذي أقامه أرسطو بين معرفة عقلية غايتها التأمل والمعرفة من أجل المعرفة ، وبين معرفة عملية غايتها السلوك حيث أن تصنيف أرسطو للمعرفة ينسب أساساً على هذا الفصل الذي يرجعه ديوي إلى نظرة إيديولوجية سادت المجتمع اليوناني في عهد أرسطو .<sup>(٢)</sup> وعليه فإن ديوي ينبذ هذا الفصل ويمقته ، ويدعو إلى توحيد المعرفة والعمل ، توحيداً تزول معه كل ضروب القطيعة المزعومة والأفكار التي تنصب العقل كقوة أو سلطة سامية .<sup>(٣)</sup>

وقد قلنا فيما سبق أنه بدأ هيجلياً " فرأى مثل هيجل أن قلق الفكر الحديث ناشئ من التعارض بين المثل الأعلى والواقع أو بين الروح والطبيعة ، فأراد أن يحقق الوحدة الروحية خير مما فعل هيجل " .<sup>(٤)</sup>

وأصل التعارض بين المثالية والمادية أو بين الروح والطبيعة ، أن المثالية تعتبر المعرفة تأمل معان وترد المادة إلى الروح ، على حين أن المادية تعتبر المعرفة مجرد ظاهرة عارضة فترد الروح إلى المادة . وكل من المذهبين يقسم العالم إلى أجزاء ، ثم يحاول التوحيد بينهما عبثاً ، أما إذا اعتبرنا المعرفة آلة أو وظيفة - كما قلنا سابقاً - كانت الفكرة الحقة هي التي ترشدنا حقاً .<sup>(٥)</sup>

" وعنده أن الفلسفة تجهد نفسها بلا جدوى في الاهتداء إلى وحده بين أجزاء كون شطرته هي نفسها إلى شطور ..... وهذه المشكلات في نظر ديوي تنبع من

(١) مصطفى حسبية / المعجم الفلسفي / ص ٣٢٨ / مرجع سابق .

(٢) راجع محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً / ص ٧٢ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٤) يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / ص ٤٢٥ / ط الخامسة / مكتبة الدراسات الفلسفية / دار المعارف .

(٥) المرجع السابق / ص ٤٢٥ .

اعتبار المعرفة نظر وتأمل ، وذلك ما يعارضه بمذهبه الأداتي أو الوظيفي ، فالمعرفة عنده فاعلية موجهة ، إنها جزء وظيفي من التجربة ، وغاية الفكر لا تكمن في الفكر نفسه ، فما الفكر إلا طور من أطوار الحياة ، يحدث متى ما نشب نزاع بين الدوافع الفعالة " . (١)

وأخيراً يعتقد ديوي : أن التحول الذي حدث للمعرفة في انتقالها من التأمل إلى الفاعلية كان النتيجة المحتمومة للبحث في الكثير من المجالات العلمية والصناعية والفنية (٢) .

### ثالثاً : المعرفة عملية تجريبية :

تعد الفلسفة البراجماتية تطويراً للاتجاه التجريبي العلمي ودفعاً به إلى نتائجه الطبيعية . (٣) وهذه الفلسفة ، توجه للعمل بدلاً من التأمل في ظواهر الكون . فهي منهج عملي انتقائي يرفض الجمع بين المتناقضات عندما يدعونا للاختيار . (٤)

فالفكرة عند ديوي كما قلنا سابقاً أداة فعل لديه ، إلا أنه صب اهتمامه على ناحية العلوم الطبيعية ، وقد انتهى إلى أنه لا توجد حقيقة خارج المعرفة التي ينتجها منهج العلوم الطبيعية ، وأنه من غير الممكن البحث عن أسباب الأعمال خارج نطاق التجربة ، لذا ينبغي رفض كل الأفكار التي تتعالى على الطبيعة في هذا العصر المتقدم ، والاتجاه إلى الخبرة ، حيث أنها تعلمنا أن كل شئ يتغير ، وأنه لا يوجد ثبات ولا سكون لا في ميدان المادة ولا في ميدان العقل . (٥)

(١) اميل برهية / تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة ١٨٥٠ - ١٩٤٥ " / ج ٧ / ص ١٦٤ ، ١٦٥ /

ترجمة جورج طرايشي / ط أولى / ١٩٨٧ م .

(٢) رالف ن . وين / قاموس جون ديوي في التربية " مختارات من مؤلفاته " / ص ٢٠٧ / ترجمة محمد

علي العريان / مكتبة الأنجلو المصرية / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر / القاهرة - نيويورك / ١٩٦٤

م .

(٣) راجع عزمي إسلام / اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص ٨٥ / ط أولى / وكالة المطبوعات

الكويت / ١٩٨٠ م .

(٤) راجع حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ٩٨ / مرجع سابق

(٥) راجع بوشنسكي / الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ص ١٦٢ / مرجع سابق .



يقول ديوي : إننا إذا صغنا فكرتنا عن المعرفة على مثال البحث التجريبي ، رأينا أنها طريقة للنظر في أمور الخبرة العادية بحث نصوص أفكارنا عنها في صيغ من تفاعلها بعضها مع البعض الآخر ، وبذلك يكون توجيهنا لها وقدرتنا على تغييرها وتيسير دفة هذه التغييرات حسبما نشاء مما لا حد له ، فالمعرفة ذات ضرب من الفعل العملي . (١)

" إلا أنها لا تعتبر اتجاهًا تجريبيًا بالمفهوم التقليدي للتجربة ، بحكم أنها تمثل تطويراً له ، من حيث ربطها بين نتائج التجربة وما يترتب عليها من منفعة ذاتية لها " . (٢)

وهنا تُشابه الأدوات الرواقية (٣) في محاولتها الجمع بين التجربة الحسية ، والتقدير العقلي للمنفعة ، حيث تجمع بين ما يراه العقليون من جهة ، وبين ما يراه التجريبيون من جهة أخرى ، مضيفة أمراً ثالثاً إلى العقل والحس وهو تحقيق المنفعة .

وعلى ذلك فإن ديوي يقول بالنسبة وإنكار الحقائق المطلقة ، ولا يعترف بالمقولات الخالدة التي تتسم بالثبات والإطلاق ، إلا ما ارتبط بالتجربة المفيدة للفرد. وهذا ما يميز البراجماتي بوجه عام . (٤) " فالحقيقة هي ما تسفر عنه نتائج أفكارنا في المستقبل ، وهي نتائج ذات طابع عملي ، لأن النتائج لا تنشأ إلا من خلال العمل ، فالحقيقة البرجماتية ليست اكتشافاً بل هي اختراع... وهي تعنى أن لا شيء ثابت ، نهائي ، ملزم ،

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٣١ / مرجع سابق .

(٢) حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ٩٨ / مرجع سابق .

(٣) الرواقية : فلسفة رواقية تعتمد على تعاليم زينون الرواقي " ٣٣٣ق.م - ٢٦٤ ق.م " راجع مصطفى حسينية / المعجم الفلسفي / ص ٢٣٦ / مرجع سابق .

(٤) إن ديوي هنا متأثر بمن سبقه من البرجماتيين ، فيبرس يقول : " طرائق الميثافيزيقيين في الاستنباط تصطنع على أساس فروض من عندهم ، ويصلون بها إلى براهين يصفونها بالصواب ، الذي لا يتعرض للتعديل ، على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية " . زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ص ٢٠٤ / ط الرابعة / دار الشروق - بيروت / ١٩٩٣ م . أما جيمس فيقول : إن البراجماتي " يولى ظهره بكل عزم وتصميم - إلى غير رجعة - لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترمين ، إنه ينأى بعيداً عن التجريد..... وعن المبادئ الثابتة وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة ، وهو يولى وجهه... شطر الحقائق والوقائع ، شطر العمل والأداء والمزاولة وشطر القوة " . وليام جيمس / البراجماتية / ص ٧١ / مرجع سابق

مطلق ، قبل الإثبات ، فهي متحركة متغيرة بتغير ظروفنا وحاجاتنا المتعددة .. وهذا هو الجديد لدي المنهج البرجماتي " . (١) سواء عند " بيرس " أو " وليم جيمس " أو " جون ديوي " . (٢)

" وهذا يعني أن الحقيقة نسبية وليست مطلقة وجدت مرة واحدة ، إن المنهج البراجماتي بكل صورة يقرر أن الحقيقة من صنع الإنسان ، ولذا فهي متحولة ومتغيرة " . (٣)

وبناء على ما سبق فإن ديوي يرى أن الإنسان كائن يريد التكيف مع البيئة ، وأن عقله وأفكاره وسائل لتحقيق هذا التكيف ، ولن يكون للفكر قيمة إلا إذا كانت له نتائج عملية . (٤)

فوظيفة الفكر البناء تجريبية بالمعنى العلمي ، والفكر ليس خاصاً بشئ يسمى العقل أو منفصلاً عن الطبيعة . (٥)

ويمكن تلخيص نظرية المعرفة عند جون ديوي في عدة نقاط تتمثل في الآتي :

١- ليست المعرفة هي التطابق بين الذات والموضوع ، وإنما تسير مع المنهج التجريبي وتتطور بتطوره . (٦) مما يجعل المعارف التي يتعلمها الإنسان متجددة متجددة وتناسب والتطور العلمي .

(١) حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ١١٥ / مرجع سابق . راجع أيضاً صلاح قنصوة /

نظرية القيمة في الفكر المعاصر / ص ١٣٨ ، ١٣٩ / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨٦ م .

(٢) راجع صلاح قنصوة / نظرية القيمة في الفكر المعاصر / ص ١٣٨ ، ١٣٩ / مرجع سابق .

(٣) حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ١١٥ / مرجع سابق . راجع أيضاً

(٤) المرجع السابق / ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

(٥) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٩٤ / مرجع سابق ، راجع اميل برهيه / تاريخ

الفلسفة " الفلسفة الحديثة ١٨٥٠ - ١٩٤٥ " / ج ٧ / ص ١٦٤ ، ١٦٥ / مرجع سابق .

(٦) المرجع السابق / ص ٢١ .

٢- ليست المعرفة قبلية ، وليست ثابتة نهائية بل أداة للمراجعة وافتراض فروض جديدة . (١) وهي ذريعة لكل عمل ، وتتوقف قيمتها علي النتائج النافعة التي تنتج عنها .

٣- تتخذ الأدوات من الأشياء وسائل للمعرفة لا موضوعات لها . ففي إمكان الإنسان أن يعدل في البيئة التي يعيش فيها من جميع الوجوه الطبيعية والحيوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية . (٢)

٤- يرى ديوي أن طبيعة المعرفة هي ما يكيف الإنسان للبقاء ، وبذلك يصبح التفكير وسيلة لتحقيق التكيف أو يصبح العقل هو القدرة على التكيف في المواقف الجديدة .

٥- إن البراجماتية الأداتية عند جون ديوي ذات طابع تطبيقي ، تقوم على العمل والتفكير والاستقصاء والتجريب ، فالمعرفة مرهونة بما تقدمه من آثار عملية .

٦- وأخيراً إن الأدوات بل والبراجماتية بوجه عام " انصراف عن البحث في المبادئ الأولى والعلل البعيدة والضروريات إلى النظر في ثمار الأفكار ونتائجها في الحياة " . (٣)

ومن نظرة ديوي للمعرفة يتجلى مذهبه الأداتي بصورة واضحة . فالمعرفة هي الأداة الوحيدة في تطور المجتمع . وسوف نقوم بالرد على هذه الآراء في نهاية البحث إن شاء الله ، ننتقل للحديث عن أبرز الأسس التي تقوم عليها الأدوات ، ألا وهي نظرية البحث والحق والكون .

(١) المرجع السابق / ص ٢١ / بتصرف .

(٢) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٠٦ ، ١٠٧ / مرجع سابق .

(٣) راجع توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣١٩ / مرجع سابق .

## المبحث الثاني

### أسس الأدائية

#### " المنطق ونظرية البحث – نظرية الحق - والكون "

#### أولاً : المنطق ونظرية البحث

حاول ديوي أن يقيم مذهبه الأدائي على دعامة من التفسير المنطقي ، فبسط لنا نظرية مسهبة في البحث ، أراد من ورائها أن يقدم لنا تاريخاً طبيعياً للتفكير ، في ضوء دراسته للظروف الاجتماعية والبيولوجية ، المحيطة بنشاط العقل البشري ، كما حاول أن يقدم لنا تفسيراً نظرياً لوظيفة العقل البشري ، فراح يكشف لنا عن طابعه الأدائي في مواجهة المواقف ، وهناك مفهومان أساسيان يمثلان المفتاحين الضروريين لفهم نظرية ديوي المنطقية . ألا وهما مفهوم الموقف ومفهوم البحث ، وتبعاً لذلك فإن البحث عملية منطقية يراد من ورائها إحالة مواقف غير محددة وباعثة على الشك إلى مواقف محددة وباعثة على اليقين . والغرض من البحث هو الوصول إلى مرحلة الاعتقاد ، والنتيجة المترتبة على البحث يطلق عليها مصطلح " المعرفة " .<sup>(١)</sup> وهنا قد يبدو أن " ديوي " يستعير الكثير من " بيرس " <sup>(٢)</sup> ولكن الملاحظ بصفة عامة أن ديوي يصف عملية البحث ومواجهة المواقف بعبارات مليئة بالتشبيهات التطورية والاجتماعية " <sup>(٣)</sup> .

(١) راجع جون ديوي / المنطق ونظرية البحث / ص ١٣ / ترجمة زكي نجيب محمود / تقديم عبد

الرشيد الصادق محمودي / المركز القومي للترجمة / القاهرة ٢٠١١ ، راجع أيضاً زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٦ ، ٦٧ / مرجع سابق .

(٢) لقد تأثر ديوي تأثراً شديداً بما ذهب إليه بيرس من أن جميع أنواع الفكر ليست إلا حركة تتجه من موقف مثير للشك إلى موقف اعتقادي مستقر . راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ٢٠٢ / مرجع سابق .

(٣) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة الحديثة / ص ٦٧ / مرجع سابق .

والواقع أن كل ما قد وصف به ديوي التفكير مستمد في معظمه ، إما من بيرس ، وإما من وليام جيمس ، لكنه صاغه بطريقة يتفرد بها .<sup>(١)</sup>

" ولقد كان أصحاب المذاهب الأخرى يبحثون عن الحق الثابت الذي لا يتغير مهما يكن زمانه ومكانه ، فعارض ديوي هذا الاتجاه ، جاعلاً البحث - بمعناه الاصطلاحي - لا الحق الثابت ، هو أساس العلم ، وإذن فهو أساس المنطق " .<sup>(٢)</sup>

وخلاصة النظرية الأداتية التي يقدمها لنا ديوي في مضممار المنطق هي أن " البحث المنطقي يمثل عملية تحويل موجهة منضبطة ، نستطيع عن طريقها أن نحيل موقفاً غير محدد إلى موقف هو من التحديد في مقوماته وعلاقاته بحيث إنه ليملك إحالة عناصر الموقف الأصلي إلى كل موحد " .<sup>(٣)</sup>

" والموقف ليس شيئاً مفرداً ولا حادثة مفردة ، بل ولا مجموعة من الأشياء والحوادث ، لأنه يستحيل علينا أن نفصل أو أن نقضي بأحكام على أشياء وحوادث وهي بمعزل ، بل نفع ذلك حين تكون الأشياء والحوادث عندنا داخلية في كل سياقي ، وهذا الكل السياقي هو ما نسميه موقفاً . ويتم هذا التحويل بواسطة إجراءات عملية تقع في نوعين : الأول إجراءات تتناول موضوع البحث ، والثاني إجراءات عملية تتضمن أدوات البحث مثل الملاحظة وغيرها ، ولما كانت هذه الإجراءات جزء من الوجود الخارجي ، كان من شأنها أن تعدل الموقف الوجودي الذي كان قائماً أول الأمر " .<sup>(٤)</sup>

والبحث عملية متصلة يستحيل الوقوف فيها عند مرحلة على أنها الحقيقة النهائية ، فكل مرحلة تؤدي إلى ما بعدها ، حتى تنتهي في المشكلة الواحدة إلى حل أخير نسبي ، ولكن هذا الحل الأخير نفسه قد يصبح بداية لبحت آخر يتضح منه ما يوجب تعديل ذلك الحل الأخير ، ويعني الاتصال عند ديوي أن كل قضية مؤدية إلى قضية أخرى ، وهكذا حتى تنتهي إلى حكم أخير يحل لنا الإشكال المطروح للبحث ، على أن هذا

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ٢٠٢ / مرجع سابق .

(٢) جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ١٣ / مرجع سابق .

(٣) راجع جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ١٣ / مرجع سابق .

(٤) جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ١٥ ، ١٦ / ترجمة زكي نجيب محمود / . بتصرف .

الحكم الأخير نفسه سرعان ما يُستخدم في بحث آخر جديد ، وهكذا تظل عملية البحث في اتصال دائم لأن التجربة والخبرة متصلان <sup>(١)</sup>. " وبذلك يختلف منطق ديوي عن سائر أنواع المنطق في أنه لا يغفل عنصر الزمان ، كما أنه يشدد على أهمية وضرورة أحكام القيمة أو الأحكام العملية " <sup>(٢)</sup>.

" وعلى أساس فكرة الاتصال هذه لا يقر ديوي مذاهب المنطق الأخرى على تفتيت عملية الفكر إلى وحدات هي القضايا ، بحيث نستطيع أن نقول عن القضية الواحدة وهي بمعزل عن سواها أنها صادقة أو كاذبة " <sup>(٣)</sup>.

يقول أحمد فؤاد الأهواني : " لقد كان عيب الفلاسفة القديمة - في نظر ديوي - أنها فصلت التفكير عن تيار الخبرة الإنسانية ، ونظرت إليه على أنه عملية ثابتة ، أو لقطة في صورة فوتوغرافية ، فانتزعت التفكير من مجرى الحياة ، وانتزعت معه صفة جوهرية لكل كائن حي ، هي أنه يعيش في زمان . وسمت أوجه التفكير بأسماء كثيرة مثل التصور ، والحكم ، والاستدلال ، والتأمل . ولكن هذه الأوجه تدل على بحث أو على نتيجة بحث ، وأن البحث يشغل منزلة متوسطة في الخبرة .

فالبحث ، والخبرة ، والتفكير ، والزمان ، والاتصال ، والسياق ، مصطلحات تعد مفاتيح لا غنى لمعرفتها إذا شئنا فهم فلسفة ديوي ومنهجه . وهي مصطلحات تتردد في معظم كتاباته .

فالإنسان باحث في كل خطوة من حياته ، وأبحاثه تتدخل في كل ميدان من الحياة وفي كل مظهر من مظاهرها ، ففي كل يوم يعيشه الناس يفحصون ويقبلون الأمور على وجوهها فكريباً ، ويستدلون ويحكمون " بالطبع " كما يبذرون ويحصدون ، وكما ينتجون ويتبادلون وسائل الراحة في المعيشة ، لك إذن أن تقول أن الإنسان باحث بالطبع

(١) المرجع السابق / ص ٣٨ ، ٣٩ / بتصرف .

(٢) صلاح قنصوة / نظرية القيمة / ص ١٤٧ / مرجع سابق .

(٣) جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ٣٨ ، ٣٩ / مرجع سابق .

، وهو دائب عليه لا يكاد يبدأ بحث مشكلة ويتتهي بها إلى نتيجة ، حتى يواجه مشكلة أخرى في البحث ، وهكذا " .<sup>(١)</sup>

والأداة التي يستعملها الإنسان بالطبع في أثناء هذا البحث هي التفكير ، وهو في هذا التفكير ينتقل من خبرة إلى أخرى انتقالاً متصلاً لا انقطاع فيه ، وبعبارة أخرى إن عملية البحث يتدخل فيها التفكير والخبرة ، وهذه أدوات للبحث والسلوك في الحياة ، تندرج تحت ما يسمى عند ديوي بالأدائية ، وما يدافع عنه ديوي هو وجوب اعتبار الذات والموضوع متصلين داخل إطار الخبرة ، وأن الانفصال بين الشخص المفكر وبين موضوعات الفكر انفصلاً تاماً هو نوع من الثنائيات صنعها الفلاسفة وليس لها وجود في الواقع .<sup>(٢)</sup> وهو هنا يشير إلى الفلسفة المثالية كما قلنا سابقاً .

و فكرة الاتصال عند ديوي ، فكرة هيغيلية ، حيث درس الفلسفة الهيغيلية وتأثر بها كما قلنا سابقاً ، ولكن " الفرق بين الفلسفتين في هذا الصدد هو أن ديوي يكفيه في المشكلة الواحدة أن يجعل الاتصال شاملاً لموقف واحد ، في حين أن هيغل يمد من أطرافه حتى يجعل الاتصال شاملاً للعالم كله " .<sup>(٣)</sup>

" ومن الواضح هنا أيضاً تأثره بنظرية التطور ، تلك التي رفضت تفتيت الكائنات إلى أنواع مستقلة ، يقوم كل نوع بمفرده متميزاً عن غيره بخصائص محددة ، ونظرت إلى الكائنات الحية على أنها متدرجة يصعب وضع الحدود الدقيقة بين أنواعها ، وبذلك تظل الحياة في تدرج لا فواصل فيها ولا تقسيمات . ونحن هنا نجد صورة من فلسفة التطور مطبقة عند ديوي في مجال المنطق " .<sup>(٤)</sup>

فديوي يرى أنه يمكن جعل الكون في صورة أفضل وأكثر معقولة ، بواسطة البحث والنشاط الإنساني ، فهو يركز على علاقة البحث بالموقف الإشكالي المحدد -

(١) أحمد فؤاد الأهواني / ص ١٠١ ، ١٠٢ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ٣٩ / مرجع سابق .

(٤) محمد مهران رشوان /مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٧٠ ، ٧١ / مرجع سابق .

كما فعل " جيمس " <sup>(١)</sup> ، ولم يجد حرجاً في القول بأن من شأن البحث أن يحدث تغييراً وجودياً في صميم المواضيع التي توضع موضع البحث .

ويضع خصائص رئيسية لهذا البحث التجريبي تتمثل في :

- ١- هذا البحث التجريبي يتطلب العمل لإحداث تغيير في البيئة أو في علاقتنا بها .
- ٢- البحث التجريبي ليس عشوائياً وإنما توجهه الأفكار التي يتوقف عليها حل المشكلة المعروضة للبحث .

٣- إن ثمره هذا التوجيه التجريبي تفضي إلى تكوين مواقف جديدة تختلف فيها علاقة الأشياء بعضها ببعض الآخر ، ويمكن عندئذ أن تصبح معروفة لدينا . <sup>(٢)</sup>

وأخيراً فإن ديوي وإن شارك زميله " بيرس " و " جيمس " في أن الأفكار ما هي إلا مجرد خطط للعمل ، فإن ما يميزه عن غيره ، هو أنه ربط الحقيقة بالبحث ، إنه يقرر أن العلاقة بينهما هي علاقة " الحل " ل " المشكلة " فما يؤدي إلى حل للمشكلة التي تطلبت البحث فهو الحقيقي . <sup>(٣)</sup> معنى ذلك أن الحقيقة ليست ثابتة ولا نهائية ، وإنما هي عملية تطويرية تمثل شكلاً من أشكال التكيف المتبادل بين الكائن الحي وبيئته . وبذلك يعود ديوي إلى نفس النقطة الأساسية التي ينطلق منها وهي نسبة الحقائق .

١- وخلاصة ما سبق أن :

- ٢- البحث عند ديوي ينشأ نتيجة تفاعل الإنسان مع البيئة .
- ٣- تفاعل الإنسان مع البيئة يمكنه من الوصول إلى مبادئ وقواعد من التجربة على أساسها يعمل .
- ٤- المعرفة تستمد أهميتها من البحث في العالم الذي نعيش فيه .

(١) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ص ١٤٨ / مرجع سابق .

(٢) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٤ / مقدمة المترجم .

(٣) راجع د محمد مهران - د محمد مدين / مقدمة في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٥ / دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع / ٢٠٠٤ م .



٥- وأخيراً اعتبر ديوي البحث العلمي من أهم محفزات الفكر الموضوعي ، لأنه يرتبط بمواجهة قضايا ومشكلات محددة ، نعيشها على أرض الواقع من خلال البحث العلمي .

### ثانياً نظرية الحق لدى ديوي :

تحتل مشكلة الصدق مكان الصدارة في تاريخ الفلسفة النظرية ، فالفيلسوف يبدأ تفكيره الفلسفي بالاستفسار عن طبيعة الحق والبحث عن معيار يطمئن إليه في التمييز بين الحق والباطل ، وقد تجلّى النزاع في هذه المشكلة بين أتباع المذهب الصوري المحض<sup>(١)</sup> ، وبين الوضعيين عامة والبرجمائين بوجه خاص .<sup>(٢)</sup>

وقد ذهب ديوي إلى أن الحق هو التحقق<sup>(٣)</sup> من منفعة الفكرة بالتجربة ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر<sup>(٤)</sup> ، وصدق الفكرة غير منفصل عن طريق تحقيقها . وديوي لا يختلف عن غيره<sup>(٥)</sup> في الأخذ بهذه الفكرة ، وإن كان يربط بين الحق والبحث ، فيقرر

(١) أتباع المذهب الصوري المحض هم : " الرياضيون وأهل المنطق الصوري ، وكانوا على خلاف ملحوظ مع البرجمائين في تصور الحق وفهم طبيعته ، فاعتقد الفريق الأول أن هناك حقاً مطلقاً يقوم مستقلاً عن تجارب الإنسان ويكون حقاً موضوعياً لا يحده زمان ولا مكان ، ..... ولكن هذا المذهب الصوري في فهم الحق قد ناهضه المذهب العملي وغيره من مذاهب الوضعيين " كالوضعية المنطقية " . توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣١٨ / مرجع سابق .

(٢) راجع توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣١٨ / مرجع سابق .

(٣) مبدأ التحقق : " يراد به القول بأن معنى القضية هو التحقق من صوابها - عملياً أو نظرياً - فالعبارة التي يستحيل الثبوت من صوابها أو خطئها في حدود الخبرة الحسية تكون غير ذات معنى ، ومن هنا كان مبدأ التحقق مقياساً تحدد به معاني العبارات ودلالاتها " توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٢١٠ / مرجع سابق .

(٤) راجع توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣١٨ / مرجع سابق .

(٥) " فكل من "بيرس" و"جيمس" يركزان على النتائج العملية التي تترتب على الفكرة أو المعتقد " . راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٦٦ / مرجع سابق ، راجع وليم جيمس / البرجماتية / ص ٢٦٢ / ترجمة محمد علي العريان ، زكي نجيب محمود / مرجع سابق .

أن الحق هو ذلك الذي يأتي حلاً للموقف المشكل . فالحق ليس إذن حقيقة غيبية ميتافيزيقية ، بل هو صفة تصف العلاقة القائمة بين المشكلة والحل ، فهو إذن ذلك الذي ينقلنا من موقف مهوش لا متحدد إلى موقف مكتمل وواضح تماماً . ويكون الحق بذلك حالة من حالات المعرفة أو الاعتقاد الصحيح . ويصر ديوي على أن يتجنب استخدام ألفاظ " الحق والباطل " ، " والصدق والكذب " محاولاً بذلك تجنب الدخول في مناقشات ميتافيزيقية حول طبيعة العلاقة بين الفكر والواقع أو بين الذات والموضوع .

(١)

ويقول ديوي : بنظرية التقابل (٢) التي تجعل من الحق استجابة لبعض الشروط والمتطلبات التي يقتضيها حل الموقف المشكل ، فالحق وثيق الصلة بالإشكال والحل ، والسؤال والجواب ، والمفتاح والقفل مثلاً ، فهو عملية إجرائية ترتبط بالموقف المشكل .

(٣) .

" ولا يرى " ديوي " الفكرة التي لها نتائج عملية صادقة ، والتي ليست لها نتائج عملية كاذبة ، وإنما يسمي الأولى فكرة مرضية والثانية غير مرضية ، أو فكرة حسنة وفكرة رديئة .

ويقول إذا ما قيل عن الصدق أنه عبارة عن الرضا - مثلاً - فكثيراً ما فهم الرضا على أنه الرضا الوجداني لا أكثر ، أي على أنه الراحة الشخصية وإشباع حاجة شخصية بحتة ، على حين أن الرضا الذي نحن بصدده إنما هو إرضاء لحاجات المشكلة

(١) راجع إبراهيم إبراهيم ياسين / مدخل إلى الفلسفة العامة / ص ٣٣٨ / ط أولى / دار و مكتبة الإسرائ للطبع والنشر والتوزيع / كلية الآداب - جامعة القاهرة / ٢٠٠٥ م . .

(٢) التقابل : هو علاقة بين موضوعين أحدهما في مواجهة الآخر . أو بين متحركين يقتربان من نقطة معينة أو يتعدان عنها ، وفي المنطق يقال على لفظين أنهما متقابلان في حالة التضاد أو التناقض ، ويقال أيضاً على القضية في حالة الاتفاق في الموضوع والمحمول . والقضيتان المتقابلتان هما اللتان تختلفان بالسلب والإيجاب وموضوعهما ومحمولهما واحد في المعنى . راجع جميل صليبا / المعجم الفلسفي / ج ١ / ص ٢٠٥ .

(٣) راجع زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٩ / مرجع سابق .

التي نشأت عنها الفكرة ، ونشأ عنها الغرض من الفعل والطريقة التي ينفذ بها ، فهو يتضمن شروطاً موضوعية عامة ، فلا ينبغي أن يكون تناوله بحسب رغبات الأشخاص ، ولا بحسب أمزجتهم الخاصة . (١)

وكذلك إذا ما عُرف الصدق بأنه المنفعة ، فهم هذا التعريف غالباً على أن المنفعة المقصودة هي المنفعة بالنسبة إلى عرض شخصي محض ، أو كسب معين لفرد معلوم من الناس صمم على إدراكه . ففكرة الصدق التي تكون وسيلة لتحقيق مطمح خاص أو إدراك منفعة خاصة ، فكرة مستهجنة حقاً . والواقع أن الصدق بمعنى المنفعة ، إنما يعني فائدته من حيث ما يقدمه من خدمات إلى إعادة تنظيم الخبرة بالشكل الذي تزعم الفكرة أو النظرية أنها قادرة عليه ، ففائدة الطريق لا تقاس بمدى ما يستفيدة منه قطاع الطرق ، بل تقدر بحسب تأديته وظيفته من حيث هو طريق - أي من حيث هو وسيلة - لتيسير النقل وتسهيل المواصلات العامة الناجمة . وكذلك الحال في جعل فائدة الفكرة أو النظرية مقياس صدقها . (٢)

ويرى ديوي أن المحور الرئيسي لشتى المذاهب المنطقية هو التماس الشروط التي تجعل قضية ما صادقة ، حتى لقد كانت تلك المذاهب المنطقية الأولى تعرف القضية في المنطق بأنها : ما يجوز وصفه بالصدق أو الكذب ، وأما العبارات التي لا يجوز وصفها بإحدى هاتين الصفتين - كالأمر والرجاء - فليست قضايا ، ولا يكون للمنطق شأن بها ، على أن الصدق المنشود لم يكن من شروطه التطبيق العملي للعبارة حتى نصفها بالصدق ، ولقد كان من الجائز أن يتصور الإنسان في مجال فكرة البحث قضية ما يقبلها المنطق ما دامت صالحة ، أي ما دامت قابلة لوصفها بالصدق أو بالكذب . (٣)

أما ديوي فلا يفتح بابه إلا للجملة التي تكون ذات مهمة أدائية تؤديها في عملية البحث . فالقضايا عنده وسائل تمثل العدد والآلات ، وهي لا توصف بكونها صادقة أو كاذبة ، بل توصف بأنها مؤدية إلى الغرض المقصود أو غير مؤدية إليه ، فإذا كان الكلام

(١) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ٢٦١ ، ٢٦٢ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) راجع جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ١٣ / مرجع سابق .

غير ذي صفة أدائية عملية ، فهو خارج عن المنطق ، وكذلك يخرج كل كلام طابعه الصدق الصوري (١) وحده . (٢)

ومن هنا رفض ديوي كل كلام عن الصدق الصوري وحده ، إذ أن الأمر في أي كلام كالأمر في الخرائط الجغرافية ، فالخريطة الجغرافية لا تكون جدية باسمها إلا إذا صلحت في أن توجه السائر إلى طريق من شأنه أن يؤدي إلى غاية يريد بها . والقضية عند ديوي لا تكون قضية إلا بمقدار ما تؤدي إلى غيرها ، ثم إلى غيرها ، وهكذا حتى تنتهي آخر الأمر إلى حكم أخير يكون بمثابة حل المشكلة التي نكون بصدد معالجتها وحلها . فالقضية بهذا المعنى هي وسيلة إلى غيرها ، بمعنى أن كل فكرة هي بمثابة ذريعة أو وسيلة أو أداة لبلوغ هدف منشود . وكل ما يؤدي إلى هذا الهدف فهو حق . (٣)

ومحك صدق الأفكار عند ديوي هو التطبيق العملي ، ويستشهد بذلك على عبارة من الإنجيل تقول : " من ثمارهم تعرفونهم " (٤) بمعنى أن الآثار العملية هي المحك الأوحد لقياس قيمة الأفكار ، (٥) " فهو يربط الحق بالعمل أو التطبيق ، ولكن الحق عنده ظل يشير إلى مجموعة الشروط أو الظروف التي تميز ما هو حل عما هو إشكال ، ومن ثم فقد بقي الحق بمثابة مجموعة الشروط والعمليات التي تحيل الموقف المشكل إلى موقف غير مشكل " . (٦)

(١) من الأمثلة على تلك القضايا : هذه الصورة جميلة - الأوفق أن يستيقظ المرء مبكراً - أرى أن استثمار المال في الأسهم الصناعية أحسن من استثمارها في شراء أرض زراعية ، فهذه الأمثلة لا تعد عند كثير من المناطق كالوضعية المنطقية قضايا صادقة أو كاذبة ، فهي قضايا غير علمية . راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ص ١٤٦ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ١٤ .

(٣) راجع جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ص ١٤ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمد مهران ، محمد مدين / مقدمة في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٨ / مرجع سابق .

(٤) إنجيل متى / ١٦ : ٧ .

(٥) راجع إبراهيم إبراهيم ياسين / مدخل إلى الفلسفة العامة / ص ٣٣٨ / مرجع سابق ، راجع أيضاً زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٩ / مرجع سابق .

(٦) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٧٠ / مرجع سابق .

إن أتباع هذا المذهب على اتفاق في أن الحكم لا يكون صادقاً إلا إذا دلت التجربة على أنه نافع عملي ، ولا عبرة بالحكم العقلي ، فمقياس الحق هو المنفعة أو العمل المنتج فحسب . (١) وهذا إعلاء من شأن الإدراك الحسي الذي يقوم بمباشرة هذه الآثار النفعية التي اعتبرها أنصار هذا المذهب مقياساً للحق . ومن ثم فإن هذا المذهب يمثل المذهب الحسي في ثوب جديد ، إذ يرجعون المفاهيم النظرية إلى الخبرة كما سيأتي أو التجربة أو المنفعة العملية ، فلم تعد الحقيقة مرتبطة بالمبادئ والأوليات بقدر ما هي محكومة بالنتائج .

وأخيراً " فإن تأكيد المنهج البرجماتي على تتبع النتائج العملية لأي فكرة يعد امتداداً للفكر العلمي والتجريبي فهذا ما تذهب إليه النظريات العلمية " . (٢)  
 مما سبق يتضح أن :

١- أن الفكرة عند جون ديوي لا توصف بأنها صادقة أو كاذبة ، بل توصف بأنها مفيدة أو غير مفيدة . وبعبارة أخرى مؤدية أو غير مؤدية .

٢- المعنى عنده مرهون بالنفع في الواقع العملي الذي يوجه السلوك ويرسم العمل كما تفعل الخريطة الجغرافية .

٣ - ألقى ديوي بالمشاكل المنطقية للصدق وراء ظهره ، وعني بطرح النظرية الوظيفية للمفاهيم ، وبين أن التفكير أداة للمعرفة ، والمعرفة أداة للتنظيم ، والعلم ذاته مجرد أداة لكي يؤمن وجود الإنسان ، ويكفل له الانتصار في معركة الصراع من أجل البقاء والمعيار هو الصلاحية لأداء هذه الوظيفة وليس الصدق أو الكذب . (٣)

٥- وأخيراً فإن الحقيقة أو الصدق عند ديوي ليس أمراً جامداً وغير قابل للتغير ، بل هو ينمو ويتطور مع الزمن . ففي الأزمنة المتعددة من التاريخ الإنساني ، ربما تكون هناك نظريات وأفكار مرضية بالنسبة للمشكلات التي كانت سائدة آنذاك ،

(١) راجع توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣٩٥ ، مرجع سابق .

(٢) حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / ص ١٠٢ / مرجع سابق .

(٣) راجع يمى طريف الخولي / فلسفة العلم في القرن العشرين " الأصول - الحصاد - الأفق المستقبلية " / ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت / ط ٢٠٠٠ م .

وقد لا تصلح لأزمة أخرى ، فنكون بحاجة إلى نظريات جديدة أو أفكار جديدة تواجه هذه المشكلات الجديدة . وعلى ذلك فالفكرة قد تؤدي عملاً لفترة ، وبالتالي تصبح صادقة ، ولكنها قد تفشل بعد ذلك في أداء هذا العمل ، ولا تترتب عليها نتائج مرضية ، أو لم تعد متحققة بالتجارب اللاحقة ، فتصبح عندئذ فكرة كاذبة ، وبذلك يكون الصدق والكذب والحق والباطل والصواب والخطأ ، كلها مفاهيم نسبية وليست مطلقة .

### ثالثاً : نظرية الكون عند جون ديوي :

نظرة ديوي للكون والعالم هي نظرتة للمعرفة ، فلقد رفض الثنائية القائمة على التعارض بين العالم العقلي والعالم الواقعي المحسوس ، وهو يعتبر أن العالم ليس مجرداً كما يرى المثاليون ، بل هو في كليته يشمل الطبيعة والإنسان ، وإذا كان النظام البطلمي " بطليموس " يقوم على أن الأرض ثابتة وهي المركز ، والشمس تدور حولها ، والنظام الكوبرنيقي يجعل الشمس مركزاً لجميع الكواكب ، فإن النظام الذي يراه ديوي لا يتخذ من الشمس أو الأرض مركزاً ، وإنما هما جميعاً ومن معهما من كواكب أجزاء من عالم واحد ، كله يتحرك باستمرار في تفاعل وترابط بين سائر أجزائه .<sup>(١)</sup> وتفضي نظرية ديوي هذه إلى أن الكون والإنسان والأشياء في حركة دائمة تتميز بالتطور والنمو . ولا شك أن الطابع الدينامي<sup>(٢)</sup> لفلسفة ديوي هو الذي يجعل كل ما في العالم من مظاهر متنوعة ، حقيقة متغيرة دائبة الصيرورة ، فكل ما في الكون فريسة للتحويل والتغير . ولذلك دعا ديوي إلى تجديد الفلسفة من خلال معالجة قضايا الحياة الإنسانية المتغيرة ، بالبحث عن أسبابها وحقائقها ، ويعتقد ديوي أن الفلسفة كان لها دور كبير في ظهور الحركة العلمية كعلم الفلك والفيزياء والتاريخ ، ويثبت أن المناقشات الفلسفية التي

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٧ / مرجع سابق .

(٢) دينامية : لفظ افرنجي مشتق من اللفظ اليوناني " دوناميس " أي القوة . فالدينامي : لفظ متعلق بالقوة والحركة ، دافع إلى العمل ، متميز بفاعلية ، محرك بقوة . / مراد وهبة / المعجم الفلسفي / ص

اكتسحت مجالات الحياة قد أنجزت عملاً كبيراً إذ لولاها لما وصل العلم إلى ما هو عليه اليوم .<sup>(١)</sup>

يقول : " من العمليات التي يجب أن تضطلع بها الفلسفة المجددة ، عملية مؤداها أن نجمع ونعرض الأسباب التي تعلق زوال ما قد كان من فصل بين ما هو نظري وما هو عملي " .<sup>(٢)</sup>

وهنا يستند ديوي لما قدمه جيمس في تصوره لوظيفة الفلسفة ، والتي رآها لا تخرج عن العمل على تحرير عقول الناس من التحزب والهوى ، وتعمل على توسيع مداركهم للعالم الذي يحيط بهم ، وبهذا يظهر طموح ديوي في إزالة الثنائية التي تميزت بها الفلسفة التقليدية ، وعمل على بيان وجهات النظر المختلفة التي ميزت تاريخ الفلسفة وعبرت عنها المذاهب الفلسفية المختلفة ، والتي اختلفت حول طبيعة الحقيقة . في حين يرى ديوي أن الاختلاف كان له أن يكون حول الهدف الاجتماعي الذي يتم السعي لبلوغه ، ولو كان ذلك الاهتمام ليس منعزلاً عن الإنسان في طبيعته وطبائع حياته وتاريخ مؤسساته الاجتماعية لظفرت الفلسفة بما ظفر به العلم اليوم ، وبالتالي ستكون مهمة الفلسفة إذا ارتبطت بالقضايا الاجتماعية هي العمل على توضيح أفكار الناس وتبصيرهم بشأن ما يدور فعلاً في عصرهم ، وتسعى لمعالجة ذلك التعارض في الواقع .<sup>(٣)</sup>

مما سبق يتضح أن نظرة ديوي الأدائية للكون والعالم ، تمثل فلسفة للحياة تؤمن بالتغيير ، وتهدف إلى التطور والنمو ، وتتخذ من الخبرة منهجاً لها في مواجهة الواقع ومعالجة مشكلاته ، كما تتخذ من التفكير العلمي أدواتها المنطقية من أجل الوصول إلى الحقيقة الموضوعية بعيداً عن التخبط في متاهات الميتافيزيقا ، وهي حين تضع أهدافها تصوغها على ضوء الواقع وظروفه ومشكلاته .

وإذا كانت كلمة التقدم قد توحى بأن ثمة كمالاً يهدف إليه الكون ، فإن ديوي حريص على فهم التقدم بمعنى النمو المستمر ، والتحسين المطرد ، وحتى حين يتحدث

(١) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ٢٧ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق / ص ٨٩ ، ٩٠ .

ديوي عن هدف أو غاية ، فإنه لا يتصور هذا الهدف أو تلك الغاية على أنها حد أقصى أو غاية نهائية ، بل هو يرى فيها مجرد عملية فعالة ترمي إلى تغيير موقف راهن ، . فليس الكمال هو الهدف النهائي ، بل إن المقصد الحقيقي للحياة هو الاضطلاع بعمليات مستمرة من التعديل وإعادة البناء ، وكل ما في الحياة من خبرات لا يكاد يخرج عن كونه اتجاهات تغير في الكيفية المميزة للخبرة ، وإذا كان سمة تفاؤل في فلسفة ديوي ، فإنه يقوم على الإيمان بأنه لا زال هناك شيء يمكن فعله ، فالقول بإمكان التحسن عند ديوي إنما يعني أن الأشياء تقبل التعديل ، فالتفاؤل عنده دعوة إلى العمل ، وثقة في قدرة الإنسان على رؤية الواقع .<sup>(١)</sup>

معنى ذلك أن التغيير صار يعني إمكانيات وغايات جديدة نعمل على إدراكها ، ونسعى وراء تحقيقها ، ليشتر بمستقبل أفضل .<sup>(٢)</sup> فالتغيير لا الثبات معيار حقيقة الوجود وطاقاته . فما يسعى العالم وراءه إنما هو معرفة ما بين التغييرات من ترابط وعلاقات ، أي القدرة على إدراك أن تغييراً يحدث بحدوث تغيير آخر نظيره .<sup>(٣)</sup> فديوي لا يؤمن بأي حقائق ثابتة - كما قلنا سابقاً - ولكن يا ترى هل ما توصل إليه من أفكار هي في نظره حقيقة ثابتة أم متغيرة . فإذا قال بالثبات فهذا خلاف مذهبه وإذا قال بالتغيير فقد الفكرة من أساسها .

هذا ويقترن التغيير بالتقدم بدلاً من اقترانه بالسقوط والنكسة ، وما دامت التغييرات ستحدث على أي حال ، فالمهم كل الأهمية أن نتعلم منها كل ما نستطيع أن نتعلمه حتى نستطيع أن نسيطر عليها ونوجهها نحو أغراضنا ، وبذلك لا تكون الأحوال والأحداث أموراً نتهرب منها ، على نحو سلبي ، بل تصبح أموراً نستخدمها ونوجهها ؛ فهي إما عقبات تقوم في سبيل أغراضنا ، وإما وسائل لبلوغ هذه الأغراض وتحقيقها ، وتصبح المعرفة بمعنى عميق ، معرفة عملية ، ولا تعود مجرد تأمل كما كانت .<sup>(٤)</sup>

(١) راجع زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٧٠ ، ٧١ / مرجع سابق .

(٢) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ٢٠٨ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤) المرجع السابق / ص ٢٠٨ .



لقد كان أكبر تأثير أوجده هذه التغييرات التي تحدثنا عنها أنها أحلت "الأبستمولوجيا" <sup>(١)</sup> محل مثالية أخرى تقوم على ميتافيزيقا كلاسيكية . لقد اهتمت الفلسفة الحديثة في أولى خطواتها بمشكلة التوفيق بين النظرية التقليدية القائلة بأن الكون عقلي مثالي ، وبين الاهتمام الجديد بالعقل الفردي ، والثقة الجديدة بقدراته . <sup>(٢)</sup>

فالبراجماتية و الأدائية والتجريبية بوجه خاص ، تبرز - كما قلنا سابقاً - أهمية الفرد وتضعه في الاعتبار الأول . فالفرد حامل الفكر المبدع ، وصانع العمل وصاحب تطبيقه ، كما أن العقل الفردي مهم لأنه أداة التعديلات في التقاليد والنظم . وليس الفرد - حسبما يرى ديوي - هو الفرد في ذاته المنعزل ، بل الذي ينشأ ويعيش في بيئة إنسانية . <sup>(٣)</sup> وهنا يظهر ديوي تمسكه بالنزعة الفردية التي تعد من أهم خصائص الفلسفة الحديثة . وهذا بلا شك تأكيد لمقولة " بروتاجوراس " ( ٤٨١ - ٤١١ ق.م ) والتي قال فيها : " الإنسان مقياس الأشياء جميعاً " وبذلك وصلوا إلى مذهب ذاتي ونسبي في الاعتقادات والأخلاق والمعرفة " . <sup>(٤)</sup>

وأخيراً ما الفائدة التي تتحقق من القول بفكرة أن الكون في حالة تغير مستمر ، وهل الكون فعلاً في حالة من التغير المستمر . لقد تجاهل ديوي حقيقة انتظام الكون وإتقانه ، مع وضوحها للأعين والعقول السليمة . لقد خلق الله الكون في غاية الإحكام والإتقان والانتظام ، الذي يدل على وجود خالق مدبر ، يقول الله تبارك وتعالى : " وترى

(١) الأبستمولوجيا : لفظ مركب من لفظين يونانيين هما " ابستمي " أي المعرفة والعلم ، و "لوفوس " أي النظرية والدراسة . فمعنى الأبستمولوجيا إذن نظرية العلوم وفلسفة التقدم . ويعزى إدخال هذا المصطلح إلى الفيلسوف الاسكتلندي ج . ف فيريير . إذ قسم الفلسفة إلى مبحث الوجود ( الأنطولوجيا ) ومبحث المعرفة ( الأبستمولوجيا ) . راجع جلال الدين سعيد / معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية / ص ١٣ / مرجع سابق .

(٢) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٢١ / مرجع سابق .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٩٤ / مرجع سابق .

(٤) محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٤٦ / مرجع سابق .

الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبيرٌ بما تفعلون " .<sup>(١)</sup>

مما سبق يتضح أن :

١- الكون في نظر ديوي حقيقة متغيرة دائبة الصيرورة ، فكل ما في الكون في تحول مستمر .

٢- فلسفة ديوي دعوة إلى التفاعل المستمر الذي يجري واقعياً بين ذهن الإنسان وما يحيط به بصورة حركية تجريبية لا تجربة آلية ، بل تجربة تتميز بالاستمرار والاتصال .

٣- ركز ديوي على المجال التطبيقي للفلسفة ، ورأى أن التفلسف يجب أن يدور حولها ، لأنها أقصى اهتمام إنساني يرتبط بالمشكلات الكونية والأخلاقية والمنطقية .<sup>(٢)</sup>

٤- ينكر ديوي أي ثنائية تفصل الإنسان عن البيئة ، كما أكد على قدرة الطبيعة الإنسانية على تغيير نفسها ، بما لها من إمكانيات بحسب مقتضيات الموقف

٥- أنزل ديوي الفلسفة من برجها العالي إلى العالم الواقعي المتغير ، وأراد أن يجعلها طريقة عمل في الحياة .

٦- للفيلسوف في نظر ديوي مهمة تقوم على جعل الطبيعة البشرية موضوعاً لعمله ، ويصوغها كما يصوغ الخزاف الطين ، لأنه في نظره يستطيع أن يأخذ بيد الإنسان ويقوده إلى المعرفة ، و بها يغير محيطه ويجدد واقعه ، فهو الذي يؤمن بدور المنهج التجريبي في تطور العلوم ودور العلم في تطور المجتمعات ، فالمعرفة الديوية غرضها تغيير العالم ، فهي لا تطلب لذاتها .<sup>(٣)</sup>

(١) سورة النمل / آية " ٨٨ " .

(٢) راجع أحمد فؤاد الأهواني / ص ٣٥ / مرجع سابق .

(٣) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٢٢٧ / مرجع سابق .

## المبحث الثالث

## الخبرة في ضوء البرجماتية الأدائية عند جون ديوي

## أولاً مفهوم الخبرة :

مفهوم الخبرة من المصطلحات التي استخدمها كثير من الفلاسفة ، ولعل ديوي هو أكثر الفلاسفة المعاصرين استخداماً لهذا المفهوم ، إن الخبرة عند البرجماتيين لا تعني مجرد الخروج من دائرة الأحاسيس الشخصية والانفعالات الفردية نحو عالم الأشياء والموضوعات والأحداث الخارجية فحسب . بل هي تعني أيضاً حدوث ضرب من التوازن بين طاقات الإنسان من جهة وبين الظروف الحيوية التي تحيط به من جهة أخرى ، بحيث ينشأ من هذا التوازن إشباع يكفل لصاحبه ضرباً من اللذة من هذا بالرضا .<sup>(١)</sup> وقد شكلت الخبرة منذ ظهور البرجماتية نقطة انطلاق هذه الفلسفة ، وهذا الرأي يتدعم أكثر عندما ندرك مدى الاهتمام الذي أولته البرجماتية لدور الفلسفة ووظيفتها في مساعدة الإنسان على حل مشاكله التي يعانيتها ويعايشها في واقعه ، وبالتركيز على هذا الواقع والتشديد ، كانت الخبرة خاضرة في الفلسفة البرجماتية ، وعُدت الخط الواصل بين الفلاسفة البرجماتيين والمبدأ الذي حظي بقبول كبير لدى " بيرس " ، و " جيمس " ، " ديوي " أو غيرهم من البرجماتيين الآخرين .<sup>(٢)</sup>

والخبرة عند ديوي تشكل مصطلحاً مركزياً بالنظر إلى الاهتمام الواسع الذي أولاه الفيلسوف لتطبيق فكرة الخبرة على مجالات عديدة مست المنطق ، والتربية ، والسياسة ، والفن ، والمنهج وغيرها . ولهذا كانت فلسفته هي : " فلسفة الخبرة " ، و " الخبرة هي التي يحيها الإنسان .<sup>(٣)</sup> ويمكن أن نعرف الخبرة بأنها : " هي ذلك التفاعل الحيوي الذي يتم بين الكائن وبيئته " .<sup>(٤)</sup>

(١) راجع فريد شيللر / التربية الجمالية للإنسان / ص ٩٠ / ترجمة وفاء محمد إبراهيم / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ١٩٩١ م .

(٢) محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٣٩ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / ص ٤٠ ، راجع أيضاً أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٥١ / مرجع سابق .

(٤) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٣ / مرجع سابق .

بل ويعتبر ديوي الخبرة هي الحياة نفسها ، فيقول : " كنا نستعمل كلمة الحياة للدلالة على الخبرة بكامل اتساعها فردية ونوعية " .<sup>(١)</sup> وقد وضع ديوي اتجاهه التجريبي وأعلن عقيدته الفلسفية التي يعترف فيها بأن الأصل الذي ينبغي أن نرجع إليه في معرفتنا هو الخبرة .<sup>(٢)</sup>

والخبرة تقال على الأمور الإنسانية ، لأنها ثمرة المعاناة في داخل الفرد ، وذلك في مقابل الأمور الطبيعية المستقلة عن الخبرة الإنسانية ، غير أن ديوي لا يفصل بين الخبرة والطبيعة ، لأن مذهبه ينحو نحو الوحدة لا الثنائية أو التعدد .<sup>(٣)</sup>

والمثال المشهور الذي يضربه ديوي توضيحاً للخبرة : مثال الطفل الصغير حين يلمس النار بأصبعه ، فليس حرق النار لأصبع الطفل كافياً في حصول الخبرة بل لابد أن يتألم ، ثم يدرك أن النار محرقة ، ثم يتعلم من ذلك أن يتجنب النار حتى لا يحترق . ومعنى ذلك أن الخبرة تقوم على فعل وانفعال ، على تأثير وتأثر . ولا تقف الخبرة عند هذا الحد بل تتجاوز ذلك إلى فهم الشخص لما وقع في خبرته ، والاستفادة من ذلك في المستقبل ، أي البصر بعواقب الأمور . والخبرة بهذا المعنى شئ حي ما دامت تنمو مع نمو الفرد في هذه الحياة ، وهذا شبيه بالمثل المشهور : من لدغه الثعبان خاف من الحبل . والخلاصة أن التلميذ ينبغي أن يستفيد من نشاطه الجسماني في كسب الخبرة ، ما دام الإنسان ليس عقلاً فقط ، ولا جسماً فقط ، وإنما هو إنسان بجسمه وعقله معاً . وهذا هو السبيل القويم الصحيح للتفكير السليم ، لأن التفكير " عملية بحث وتحقيق وفحص الأشياء " .<sup>(٤)</sup> وهذا المثال يفيد أن الخبرة تجمع بين التجربة والعقل .

(١) جون ديوي / الديمقراطية والتربية / ص ٢ / مرجع سابق .

(٢) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / مقدمة المترجم ص ٣ .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٥١ / مرجع سابق .

(٤) راجع جون ديوي / إعادة البناء في الفلسفة / ص ٩٧ / ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري / مراجعة

حسن حنفي / ط أولى / المركز القومي للترجمة / ٢٠١٠ م .

فالخبرة تعني موقفاً يعيشه الفرد مع آخرين ، فيتأثر به ويؤثر فيه ، وهو يتعلم نتائج هذا الموقف ، حيث تصبح هذه النتائج جزءاً من سلوكه سواء أكانت معلومات أو مهارات أو اتجاهات .<sup>(١)</sup>

من أجل ذلك سُمي ديوي بفيلسوف الخبرة ، كما سُمي مذهبه بالتجريبية . يقول : " وسيظل الأفراد دائماً مركز الخبرة وكمالها ، ولكن ماهية الفرد الواقعة بالفعل في حياة خبرته تعتمد على طبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها " .<sup>(٢)</sup>

فالخبرة معناها التجديد الذي يدعونا إلى الابتعاد عن الاستمساك بالماضي ، ويكشف لنا عن حقائق جديدة . فلم يعد الإيمان بالخبرة يؤدي إلى الولاء للعادات وعبادة العرف ، بل صار يؤدي إلى بذل الجهود في سبيل التقدم والرقي ، أما الخبرة القديمة ففائدتها أنها توحى إلينا بأغراض ومناهج لاستحداث خبرات أخرى جديدة أحسن منها وأرقى . وعلى هذا تصبح الخبرة أمراً ينظم نفسه بنفسه ، على نحو إنشائي ، ولكننا نستغل خبرتنا السابقة لننشئ بها في المستقبل خبرات جديدة خيراً منها وأفضل . وهكذا تشتمل الخبرة ذاتها على العمليات التي توجه بها نفسها في سبيل تحصنها وترقيها .<sup>(٣)</sup>

فالخبرة تقاس بمدى ما تؤدي إليه من تغيير في السلوك ، وبمدى أثرها على الخبرات التالية . ولا نكون قد شططنا عن الموضوع إن أشرنا إلى مدى دخول كل من التنظيم الاجتماعي والبيولوجي في تكوين الخبرة البشرية ، حيث أن رقي العلم والصناعة قد نشأ من الاعتماد على فلسفة الخبرة ، وأن الفرد والجماعة هما المحور الذي تدور حوله الخبرة ، وأن ما تم من رقي في العلم والصناعة على أساس الخبرة

(١) المرجع السابق / ص ٩٨ / بتصرف .

(٢) أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٧٢ / مرجع سابق .

(٣) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٧٧ ، ١٨٠ / مرجع سابق .

يجب أن يتم في الأخلاق والسياسة كذلك . ومن هذه الوجهة كانت مهمة الفلسفة التي تمثلت في إخضاع هذه الميادين الإنسانية لمناهج البحث العلمية .<sup>(١)</sup>

إن الجدة عند ديوي تكمن في بنائه وطرحه الجديد من خلال فلسفة الخبرة التي تُعد تميزاً لفكره التجريبي ، لتصبح الخبرة بذلك هي الحياة بأوسع معانيها ، أي من خلال التجربة المعاشة وعلاقة الفرد ببيئته ، لتلازم الخبرة الحياة أكثر فأكثر فتصبح حية أو كما يحياها الكائن الحي فعلياً .<sup>(٢)</sup>

وعليه فإن الخبرة في نظر ديوي مسألة فعل وعمل قبل أن تكون مسألة معرفة ، فهي خبرة تعتمد على السلوك وتتعب نتائج العمل في ظل التوافق القائم بين الفرد ومحيطه في محاولة للتكيف .<sup>(٣)</sup>

مما سبق يتضح أن ديوي :

- ١- يدعو لخضوع جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها للخبرة .
- ٢- الخبرة رغم تعميمها فالجانب الذاتي فيها واضح .
- ٣- الخبرة دائماً هي خبرة بالطبيعة .
- ٤- يأبى أن يجعل من الخبرة مجرد تقبل سلبي محض .
- ٥- يجعل الخبرة ضرباً من التجريب أو البحث الإيجابي .

#### ثانياً : علاقة الخبرة بالطبيعة :

قد تناول ديوي العلاقة بين الخبرة والطبيعة ، في إطار علاقة الإنسان بالطبيعة والاحتكام للواقع من منطلق ردع الفلسفات القبلية ، وهدم الثنائية المتضاربة في الفضاء

(١) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٧١ ، ٧٢ / مرجع سابق ، راجع أيضاً محمد الهادي

عفيفي / الأصول الفلسفية للتربية / ص ١٨٦ / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / ١٩٧٨ م .

(٢) راجع محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ص ٦٢ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / ص ٦٢ ، راجع أيضاً راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٧٦ ،

١٧٧ ، ٤٣ / مرجع سابق .

الفلسفي . وذلك من خلال نبذ الأفكار المتعالية قاطبة والالتفات حصراً نحو التجربة " داخل الخبرة الإنسانية الفعالة " .<sup>(١)</sup>

يقول جون ديوي : " في هذا السياق من الظروف يكون لفلسفة الخبرة النابعة من العلم والتكنيك أهميتها ، كما أن انهيار الأفكار التقليدية فرصة نرحب بها ، إن إمكان حصول هذا النوع من الخبرة التي يتعاون فيها العلم والفن للتأثير في الصناعة والسياسة والدين والحياة المنزلية والعلاقات الإنسانية بوجه عام هو نفسه شئ جديد ، لم نألفه حتى كفكرة ، ولكن الإيمان به ليس حتماً ولا باطلاً أقيم الدليل على بطلانه .... ألا ترون معي أن مهمة القرن العشرين الفعلية هي أن يتخذ هذه الخطوة ؟ إنا إذا ما اتخذناها انتظمت دائرة التلقي العملي وأضحى تجديد الفلسفة أمراً ناجزاً " <sup>(٢)</sup> ، وهذا يدل على أن الدين ليس قوة خارجة عن الإنسان عن طريق الوحي ، بل متغير على حسب المنفعة العملية الناتجة عن الموقف .

فديوي يدعم العلم كما يدعم الميكانيكا ويبين دور الأخيرة في مهاجمة الطبيعة ، حيث يرى أن السيطرة على الطبيعة لا تكون إلا بالقوانين التي سخرت لفائدة البشر والأدوات والآلات ما هي إلا وسائل يستفاد منها ، وبالتالي وجب اعتبار الطبيعة آلية ميكانيكية ومن ثم استبعاد اللاهوت والميثافيزيقا .<sup>(٣)</sup>

لقد أصبحت لغة العلم المعاصر ومعه المنهج المتبع - أي التجريبي - نموذجاً يجب إتباعه والتمسك به لأنه السبيل الوحيد لمعرفة العالم معرفة حقيقة تزيد من سيطرة الإنسان على الطبيعة ، وبالتالي النجاح في الحياة ، ولهذا كان ديوي معادياً للماورائيات في مقابل الواقع فهو يشكك في تلك الدراسات العامة التي تشغل الميثافيزيقيين في أبحاثهم وتساؤلاتهم . وهذا تدعيم لما سبق أن كررناه من أنه لا يعترف بأي قوة خارجية أو أي حقيقة غيبية .

(١) جورج طرابيشي / معجم الفلاسفة / ص ٣١٣ / مرجع سابق .

(٢) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٤٨ / مرجع سابق ، راجع أيضاً أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ٢٠١، ٢٠٢ /

(٣) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٤٨ / مرجع سابق .

يقول : بدلاً من الركون إلى الحقائق الثابتة المتعالية لا بد من النزول إلى الواقع الموجود في عالم التغيير والتي تكتسب بالخبرة . فليست القوانين أزلية ثابتة وإنما هي تصور للعلاقات بين الظواهر ، هذه الظواهر متغيرة بحسب الظروف والأحوال .<sup>(١)</sup> ومن هنا يرى ديوي أنه إذا أرادت الفلسفة إصلاح نفسها بنفسها فعليها أن تمتنع عن معالجة المشكلات التي تصدى لها الفلاسفة القدماء ، وأن تصبح منهجاً لمعالجة مشكلات البشر ، ولهذا أطلق صيحته بإعادة بناء الفلسفة بأن تعود إلى التجربة ، وأن تنبذ المطلقات ، وأن تحبذ فكرة التحكم في الطبيعة . وتتخذ من الخبرة منهجاً لها في مواجهة الواقع ومعالجة مشكلاته .

وعلى ضوء ذلك يرى ديوي أن "العالم ليس هو المركز ولا الذات ، وليست الطبيعة الخارجية ولا النفس الإنسانية هي المركز ، وإنما هو عالم واحد متصل يشتمل على الطبيعة وعلى الإنسان ونفسه وعقله وذكائه على اعتبار أن هذه الأمور كلها أجزاء من الطبيعة نفسها ، والكل في حركة متصلة وجريان دائم ، وإن شئنا أن نعين مركزاً في هذا العالم المتصل المترابط ، فهو "الخبرة" .<sup>(٢)</sup>

خاصة وأن التجربة جزء من الخبرة التي هي أساس البناء الديوي ، ولهذا كانت التجربة بمعناها الداخل تحت الخبرة من بين الاهتمامات عنده ، فقد اتسمت فلسفته بالزرعة التجريبية التي تتخذ من الخبرة ملاذاً لها ، فالفيلسوف عند ديوي يجب أن يواجه شتى مشكلاته ابتداء من التجربة الذاتية العادية وليس من التجريدات الميتافيزيقية والتركيبات اللفظية الملفقة .<sup>(٣)</sup>

ولهذا نجد ديوي نفسه عندما يشير إلى مذهبه يستخدم - كما قلنا سابقاً - اصطلاحين مختلفين هما : الفلسفة الأدائية تارة ، والفلسفة التجريبية تارة أخرى ولعل

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٥ ، ٦ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ٥ ، ٦ .

(٣) راجع زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٢ / مرجع سابق .



كلاهما فيه زيادة للتجريبية ، خاصة الثاني الذي يشير إلى أن الخبرة لا تعني التقبل السلبي ، بل تعني ضرباً من التجريب .<sup>(١)</sup>

وبناء على ما سبق يمكن أن نميز ثلاثة محاور أساسية في فكر ديوي ، ألا وهي :  
الترابط العضوي ، التطور ، التجريبية .

أما المحور الأول : فقد كان راسخاً في نفسه بتأثير دراسته الأولى للفيلسوف الألماني " هيجل - وقد ألمحت إلى ذلك سابقاً - وظل ديوي نتيجة لهذا التأثير على اعتقاد لازمه طيلة حياته ، بالتفاعل العضوي والتماسك الوثيق بين الأشياء ، وهو ما دفعه إلى معارضة كل ثنائية في الفلسفة : بين المادة والعقل ، وبين التجربة والضرورة ، وبين الواقع والقيمة .

أما المحور الثاني : وهو التطور فقد تأثر فيه " بدارون " الذي أثر على كثير من الفلاسفة التجريبيين .

أما المحور الثالث : وأعني به التجريبية فقد كان تراثاً مشتركاً في الفلسفة الحديثة بوجه عام ، وفي الفلسفة البراجماتية بوجه خاص ، وهذا ما يبرر تسمية نزعة ديوي " الأداة " بأنها تجريبية طبيعية على وجه التحديد .

وخلاصة ما سبق : فإن الخبرة عند ديوي تحتل مركزاً مهماً أساسياً في عملية الحياة ، فحيث تكون حياة ، يكون هناك سلوك وفعالية ، ولكي تستمر الحياة قائمة يجب أن تبقى هذه الفعالية متصلة ومستمرة ومتلائمة مع البيئة ، وهذه المتلائمة هي تكيف الكائن الحي مع بيئته ، وهذا التكيف لا يكون سلبياً بأي حال من الأحوال ، ولكنه تكيف يرمي إلى تشكيل الكائن الحي بواسطة البيئة التي يعيش فيها ، ومن هنا فإن الخبرة عند ديوي لا تلغي العقل ، كما أنها مرتبطة بإمكانيات الواقع الإنساني وطبيعة الحياة الاجتماعية وحركتها .

### ثالثاً : علاقة الخبرة الإنسانية بالعقل والذكاء والذاكرة :

قلنا سابقاً أن ديوي يرى أن حقيقة الأشياء لا تكون بالقوى الذهنية التي تقف من الأشياء موقف التسجيل والمعاناة ، بل موقف المشاركة الفعلية . (١) على أن ديوي

(١) المرجع السابق / ص ٧٠ .

يسمى هذه الآلة العاملة الموجهة للسلوك نحو الطريق الصحيح " الذكاء " أو العقل البصير ، في مقابل العقل عند القدماء ، والذي لم يكن سوى آلة تنطبع فيها المعارف كما تنطبع الإحساسات في آلة البصر . (٢)

ومن أجل ذلك كان لابد أن يتحول العلم الجديد من استخدام لفظة العقل إلى لفظة أخرى هي الذكاء ، فالذكاء مرتبط بالحكم ، والحكم ليس مجرد ارتباط موضوع بمحمول ، وإنما هو انتخاب الوسائل وترتيبها كي تحقق نتائج معينة ، واختيار ما نَعُدّه غايات لنا ، وليس الإنسان ذكياً بسبب حصوله على العقل الذي يدرك الحقائق الثابتة ، بل بسبب قدرته على تقدير الاحتمالات في موقف ، وسلوكه طبقاً لما قدره . وبوجه عام " الذكاء عملي والعقل نظري " . (٣)

فالعقل ذكاء قائم على إجراء التجارب ، ويمكن تصوره على غرار تصورنا للعلوم ، ويستخدم في خلق الفنون الاجتماعية . فله عمل يؤديه وذلك بأن يحرر الإنسان من عبودية الماضي التي تبلورت فصارت أعرافاً وعادات ، ويبشر بمستقبل أفضل ، ويعاون على تحقيق هذا المستقبل ، وأعماله معرضة دائماً لأن تعرض على محك الخبرة ، فليست الخطط التي يضعها الإنسان قطعية ، ولا تعدوا أن تكون مجرد فروض تطبق علمياً ثم ترفض أو تصحح بحسب نجاحها أو إخفاقها ، فهي خطط مرنة . (٤)

يقول ديوي : " ليس التجديد المنشود الذي ندعو إليه مجرد تطبيق الذكاء من حيث هو أداة جاهزة ، ولكن تجديد يقتضينا أن ننقل إلى البحث في الشؤون الإنسانية والأخلاقية الطريقة التي أوصلتنا إلى فهم الطبيعة الفيزيقية على النحو الذي نفهمها به الآن ، أي طريقة الملاحظة واعتبار النظرية بالاختبار التجريبي " . (٥)

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٣ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ٨ .

(٣) جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ١٤ ، ٢٤٠ / مرجع سابق .

(٤) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة ص ١٨٢ / مرجع سابق .

(٥) جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٤ / مرجع سابق .

إن هذا التصور الجديد الذي جاء به ديوي للتخفيف من ذلك الصراع المتصور منذ القدم بين الخبرة والعقل ، جعل من التعاون بينهما علاقة مطلوبة ، فهو كان دائم الاعتقاد أن الفلسفة تقوم وتنشأ من مشكلات الحياة الاجتماعية وصعوبة مواجهتها ، بسبب الثنائيات التي أفرزها تاريخ الفكر الفلسفي ، فالفلسفة عنده تسعى لامتلاك الحكمة التي تؤثر في تيسير الحياة ذاتها ، والفيلسوف وحده يملك مفاتيح هذه الفلسفة ويكيفها مع واقعه المعاش بغرض إعادة البناء .

إن هذه المهمة تقتضي تبصر قوي من الفيلسوف لفهم الواقع والعمل على تغييره بتجاوز مشكلاته ، ذلك التوجيه البصير هو ما عبر عنه ديوي بالذكاء والذي هو منهج ووسيلة لمواجهة المشاكل التي يثيرها المجتمع . والمعارف التي يتم الوصول إليها تكسب قيمتها من مدى اعتمادها على الذكاء . (١)

فالذكاء له وظيفة داخل الطبيعة ، على حين أن العقل يعمل من خارج ، ويقف موقف المتفرج . وهذا الموقف يمنعه من الاشتراك في توجيه الحوادث وتغيرها ، فليس الذكاء في الإنسان شيئاً يفرض على الطبيعة فرضاً من الخارج ، ولكنه هو الطبيعة نفسها تحقق ما هو موجود فيها بالقوة ، والذكاء داخل الطبيعة يدل على التحرر والتوسع ، كما أن العقل خارجها يدل على الثبات والتقيد . (٢)

مما سبق يتضح أن :

١- ديوي لا يرفض العقل ولا المعرفة العقلية ولكنه يوظف هذه المعرفة من خلال الخبرة الإنسانية .

٢- فكرة الذكاء كمفهوم جديد ، تحل محل المفهوم القديم " العقل " من أهم تجليات العمل الديوي .

٣- لم يكتف ديوي بمجرد الاستبدال اللفظي ، لكنه تغيير أعمق من هذا ، حيث يكون الذكاء بمثابة منهج يعمل وفقه الكائن الإنساني ويتفاعل مع الطبيعة ، وبالتالي تسهيل عملية التكيف .

(١) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٢٢٧ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / ص ١٦ .

- ٤- نقل ديوي هذه المهمة الجديدة أو المفهوم الجديد للعقل إلى مجال العلوم الإنسانية ليواكب سير العلوم التجريبية .
- ٥- العلاقة بين الخبرة والعقل علاقة تعاون من أجل تسهيل عملية التكيف بين الإنسان وبيئته .

المبحث الرابعأحكام القيمة<sup>(١)</sup> في ضوء البرجماتية الأدائية عند جون ديوي

أولاً : أحكام القيمة في ضوء المنهج التجريبي والتفكير الأدائي :

قلنا سابقاً أن ديوي يرى أن المنهج التجريبي يجب أن يطبق على جميع ميادين الحياة ، بما في ذلك الأمور الإنسانية ، معنى ذلك أن أحكام القيمة يجب أن ينظر إليها في ضوء التفكير الأدائي .

يرى ديوي أن هناك فرقاً بين حكم الواقع وحكم القيمة ، فحكم الواقع يدل على واقعة وجودية ، كما تقول هذا الشيء حلو أو مر ، أو أحمر أو أسود ، فهذا وصف للواقع ، وإما أن يكون صحيحاً أو غير صحيح ، فهو صحيح إن كان مطابقاً للواقع ، وخطأ إن كان مخالفاً له . أما حين نصف شيئاً بأنه ذو قيمة فمعنى ذلك أننا نقرر أنه يحقق شروطاً معينة ، وأنه يؤدي وظيفة أكثر من مجرد الوجود ، فقولنا إن الورد جميل حكم واقع ، ولكننا حين نقول إننا نختار هذه الورود لنقدمها هدية ، أو لنضعها لتكون زينة بشكل معين ، عندئذ تكون لها قيمة لأنها تحقق شروطاً معينة وتؤدي وظيفة ، وفي هذه الحالة يتدخل الاختيار والتفكير والتوجيه .<sup>(٢)</sup>

فهناك قضايا تدور حول الواقع كما هو ، وقضايا تدور حول ما يستحسن أن يفعل ، أو ما نحبه ونؤثره ونرغب فيه ، ليس معنى ذلك أن كل ما نحبه ونرغب فيه له قيمة ، بل ما له قيمة هو ما نحبه عن تفكير وإيثار واختيار ، ومن ثم كان له الحق في أن يوجه سلوكنا . ومن هذا الوجه تتفق المعرفة والقيمة ، إذ كلتاهما تصدر عن التفكير الموجه ، أو التفكير الأدائي .

(١) القيمة هي : " فكرة أو مبدأ أو صفة تكون محل تقديرنا ، وتمثل معياراً نحكم به على الأشياء أو الأفعال ، وتحدد لنا الغاية التي نطمح إليها " عزمي طه السيد أحمد / الوجه الآخر للفلسفة " مدخل معاصر " / ص ٢٠١ / عالم الكتب الحديث / إربد - الأردن / ٢٠١٥ م .

(٢) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ٢٣ / مرجع سابق .

معنى ذلك أن هناك متع عارضة ، وأخرى صادرة عن تفكير وروية ، وهذه الأخيرة فقط هي التي تسمى متعاً ذات قيمة وذات أثر على اتجاهنا وسلوكنا .<sup>(١)</sup>

فالشغل الشاغل لديوي هو تغيير القيم في المجتمعات الإنسانية ، ويتذرع ديوي بالمنهج التجريبي لإحداث هذا التغيير في القيم الأخلاقية والسياسية والجمالية وغيرها .  
**ثانياً : الخبرة الإنسانية أساس القيم الواقعية :**

كانت القيم في الفلسفات القديمة موجودة في عالم أسمى ، وتعد معياراً ينسج السلوك على منواله ، أما الخبرة أو التجربة فإنها تختص بعالم أدنى ، ولا يمكن أن يوثق بها في بلوغ معايير تنظم القيم وتهدى السلوك ، أي أنه كما وجد الفصل في المعرفة بين عالمين ، كذلك وجد الفصل في القيم . فهناك خير وشر يختصان بعالم دنيوي ، ولتصحيح هذا الخير وهذا الشر ينبغي أن يرجع الإنسان إلى القيم السامية أو إلى المثل العليا النابعة من عالم الوجود الأعلى . (٢)

ومن الطبيعي أن يرفض ديوي نظريات القيمة التي تتعالى بها ، وذلك لأنه يميل إلى ناحية الخبرة . (٣) ومن ثم فإن أحكام القيمة عند ديوي ليست أحكاماً مستمدة من قواعد سابقة ومبادئ أولية متعالية ، ولكنها أحكام عن شروط الأمور التي نجربها ونتائجها وكيف أنها تنظم هذه القيم . (٤)

وقد قلنا سابقاً أن ديوي يقول بالاتصال والاستمرار ، فليس بدعاً أن نجده يستبعد كل ثنائية بما في ذلك الثنائية التقليدية بين الواقعة والقيمة أو بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون . والحق أن فلسفة ديوي تعبر عن نزعة طبيعية أخلاقية ، لأنها ترى أن " ما ينبغي أن يكون يصدر دائماً عما هو كائن ، ويرتد دائماً إليه . بحيث أن ما ينبغي أن يكون هو نفسه صورة من صور ما هو كائن .... والطابع الدينامي الذي تتصف به فلسفة ديوي

(١) المرجع السابق / ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق / ص ٢٤ .

هو الذي يسمح لها بالانتقال من التقرير إلى التقدير ، أو من الملاحظة إلى الإلزام أو من العلم إلي الأخلاق " . (١)

ومن ثم فإن أحكام القيمة والأخلاق عند ديوي تختلف عن سائر النظريات القديمة

، فهي :

أولاً : أخلاق إنسانية تنبع من صميم الحياة التي نعيشها على ظهر الأرض ، وليست أخلاقاً متعالية تفرض على الإنسان فرضاً .

ثانياً : هي أخلاق اجتماعية لا تحصر السيرة الفاضلة داخل الفرد وبين نفسه .

ثالثاً : هي أخلاق يمكن بحثها علمياً كما تبحث سائر العلوم الطبيعية ، ويمكن ضبطها وتوجيهها كما تضبط العلوم . (٢)

### معيّار الخير والشر في إطار الموقف الأخلاقي :

" أبان ديوي عن مذهبه الأخلاقي البرجماتي في سلسلة من الكتب ، وضع بعضها في صدر حياته ، مثل " خلاصة نظرية نقدية في الأخلاق " ( ١٨٩١ م ) ، وفيه أبان عن اعتقاده الذي ينحدر إلى هيجل في اتفاق مصالح الفرد مع مصالح المجتمع ، وكتابه " دراسة علم الأخلاق " ( ١٨٩٧ م ) ، وكتاب " الشروط المنطقية لدراسة الأخلاق دراسة علمية " ( ١٩٠٣ م ) وفيه أنكر المحاولة التي قام بها الأخلاقيون منذ أيام الإغريق لاكتشاف غايات خلقية عامة ثابتة لا يحدها زمان ولا مكان " . (٣)

" والأخلاق عنده تعتبر الفرد غاية في ذاته ، وليس وسيلة إلى تحقيق غاية ، وباهتمامنا بكل فرد نهتم برفاهية الجماعة التي يعيش في ظلها هذا الفرد ، وصالح الفرد من الناس كوحدة اجتماعية هو المقياس الأقصى للخير والشر ، لأن ما يغني حياة الفرد ويخصبها لا بد أن يساهم في إثراء حياة الجماعة وإخصابها " . (٤)

(١) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٧٢ / مرجع سابق .

(٢) راجع فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٢٥ ، ١٢٦ / مرجع سابق .

(٣) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة / ص ٢٦٨ / مرجع سابق .

(٤) المرجع السابق / ص ٢٦٩ .

و كما أقام ديوي المعرفة على أساس المنهج التجريبي النابع من الفكر العامل ، كذلك أقام المثل العليا على أساس الخبرة وعلى أساس المعرفة بالشروط الواقعة والحاجات الراهنة . ونحن الذين نبني مثال الجمال في الفن ، كما نبني مثال الخير والكمال في السلوك ، معنى ذلك أن الخير عند ديوي ليس موجوداً في ذاته ، وليس مثلاً متعالياً ولكنه ناشئ من الخبرة ذاتها ، وأن الإنسان هو الذي ينشئه إنشاءً ، كما ينشئ سائر الأمور الفكرية والفنية .

ونحن إذا طبقنا المنهج التجريبي على أمور الدين والأخلاق (١) والاجتماع ، تلك الأمور التي تمتاز بالقيمة ، لحدث لها تغيير عظيم ، مثل الذي حدث في الأمور الطبيعية ، إذ بدلاً من أن نجعل أساسها مبادئ سابقة ، نحاول أن نطابق بينها وبين السلوك الإنساني ، نتجه بها صوب المستقبل وما يمكن أن تخرج به من نتائج . فنحن نتخذ الخبرة الماضية ، أداة لتحسين المستقبل . والنظر فيما استمتعنا به من قبل إنما يفيدنا في اختيار أفضل الطرق في المستقبل . (٢)

يقول جون ديوي : " لقد أصبح في استطاعتنا الآن أن نطالب بجعل الخبرة مرشداً لنا في العلم ، وفي الحياة الأخلاقية " . (٣)

لقد انصرف جل اهتمام ديوي لمسائل القيمة في مضمار السلوك البشري والخبرة البشرية ، وبالتالي اتخذ من مبدأ النتائج منهجاً عاماً للنقد الاجتماعي والتقييم الأخلاقي .

(١) " وهذا الاتجاه التجريبي في الأخلاق قد أكدته الوضعية التي دعا إليها إمام المذهب الوضعي أوجست كونت " توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣٧٣ / مرجع سابق . " وبذلك تحول علم الأخلاق على يد الوضعيين إلى صناعة أو فن يقيم قواعده الخاصة على التجربة " . مصطفى عبده / فلسفة الأخلاق / ص ١٤ / ط الثانية / مكتبة مدبولي / القاهرة ١٩٩٧ م . " بالإضافة إلى مذهب المنفعة العامة الذي دعا إليه " بنتام " و "جون ستورات مل " وغيرهما ، وقد اشترك مل مع بنتام في اقرار المنفعة غاية للأفعال الإنسانية ومعيار للأخلاق ، وتقاس أخلاقية الفعل بنتائجها لا ببواعثها " .

مقداد يالجن محمد على / علم الأخلاق الإسلامية / ص ٣٨ / ط الثانية / دار الكتب العلمية للطباعة والنشر / الرياض / ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢ م .

(٢) راجع جون ديوي / البحث عن اليقين / ص ٢٤ ، ٢٥ / مرجع سابق .

(٣) جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٥٨ / مرجع سابق .



يقول زكريا إبراهيم : " وهكذا اتخذ ديوي من طبيعة النتائج المختلفة التي تترتب على النظم ، والعادات ، والتقاليد والأفكار ، والأنظمة الاجتماعية ، معياراً للحكم على نوع الحياة البشرية السائدة في هذا المجتمع أو ذاك ، وليس من الغرابة في شيء أن ينهج ديوي في فلسفته هذا النهج ، فإن المهمة الأولى التي تقع على عاتق الفيلسوف في رأيه إنما هي مهمة التقييم النقدي للتجربة على اعتبار أن الفلسفة في أصلها عبارة عن عملية " إعادة بناء مستمر للخبرة البشرية " . (١)

فالمشكلة الأخلاقية لا تظهر إلا حين يتعرض الإنسان لموقف تتعارض فيه الغايات ، ويحار المرء أيهما يختار ، وأي الوسائل يتبعها لتحقيق ما يختاره من الغايات . وهذا التعارض إنما هو شعور يستدعي ضروباً مختلفة من الاهتمام والإيثار ، وصراعاً في الميول والأفعال وعندئذ يوجد حقاً " الموقف الأخلاقي " وهذا يستدعي إيثار غاية على أخرى ، وتصبح المشكلة مشكلة قيمة . (٢)

يقول زكريا إبراهيم : " وهكذا نرى أن الحياة الأخلاقية في نظر ديوي إنما هي صورة من صور البحث ، على اعتبار أن كل بحث يتضمن بالضرورة إحلال النظام والاتساق والتوازن محل الفوضى والاضطراب وعدم التوازن ، وليس بدعاً أن تكون للبحث صبغة أخلاقية ، ما دام البحث - في نظر ديوي - علامة للنمو البشري وشرطاً أساسياً لكل تقدم إنساني . وإذا كان ثمة واجب أخلاقي يفرض نفسه علينا بطريقة قطعية صارمة ، فما ذلك سوى واجب البناء الذي تفرضه علينا ضرورات النمو ومقتضيات التحسين " . (٣)

وعلى ذلك فإن ديوي يرى أنه ليس ثمة خير مطلق ، ولا شر مطلق ، بل هناك مواقف ، وكل موقف يمتاز بخيرية لا تشبه أي موقف آخر ، " فالخير فريد في الطريقة

(١) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٦٤ / مرجع سابق .

(٢) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٢٦ ، راجع توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ / مرجع سابق .

(٣) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة الحديثة / ص ٧٣ / مرجع سابق .

نفسها التي يعرض بها ، لأنه العزم على حل موقف متميز معقد تتنافس فيه العادات والدوافع تنافساً لا يتكرر أبداً بشكل واحد " . (١)

مما سبق يتضح أن الخير عند ديوي ليس مثلاً متعالياً ، ولكنه ناشئ من الخبرة ذاتها ، حيث يدعو ديوي لأن تكون الخبرة مرشداً للعلم و الحياة الأخلاقية . ، وهذا يوصلنا إلى نتيجة حتمية وهي أن ديوي يرد الأحكام الأخلاقية إلى البيئة الاجتماعية ، حيث يرد أصل الضمير إلى المجتمع بجعل الأخلاق اجتماعية ، يقول أحمد فؤاد الأهواني : الأخلاق لدى ديوي ظاهرة اجتماعية ، وهي من باب الواقع (٢) لا من باب ما ينبغي أن يكون . (٣) وهذا يدل على أن الأخلاق عند ديوي ذاتية أو نسبية ولا يوجد معيار حاكم لها .

إن الأخلاق كما رأينا هي مواقف تتحقق من خلال الأعمال ، وطالما أن أعمال الإنسان غير منعزلة عن مجتمعه ، إذن فالأخلاق يمكن ردها إلى المجتمع ، مثل طلب

(١) أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٣٤ / مرجع سابق

(٢) وديوي هنا متأثر بأصحاب المذهب الطبيعي ، اللذين أخذوا على عاتقهم تشييد بناء القيم على أساس من الواقع ، من أمثال " اسبنوزا " ، و " توماس هريز " ، اللذين ذهبوا إلى أن " تسمية الشيء خيراً لا تعني إلا أننا نوافق على هذا الشيء ونجده باعثاً للذة أو مرغوباً فيه أو مرضياً أو ما شابه ذلك " هترميد / الفلسفة أنواعها ومشكلاتها / ص ٣٥٢ ، ٣٣٩ ، ترجمة فؤاد زكريا / ط الثانية / دار نهضة مصر للطباعة والنشر / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر / القاهرة - نيويورك / ١٩٧٥ م ، و متأثر أيضاً بالمذهب الماركسي الذي يري " أن القيم الرئيسية في أي مجتمع هي إلى حد بعيد تعبير عن مصالح الطبقة ذات السيطرة الاجتماعية والاقتصادية على هذا المجتمع . ولذا لم تكن هناك قيم شاملة ، ولا يمكن أن يكون هناك إلا أخلاق برجوازية أو أخلاق رأسمالية ... وهذا يؤدي إلى جعل القيم نسبية تماماً " . المرجع السابق / ص ٣٣٩ . وهذا المذهب عكس المذهب الحدسي الذي ينكر إرجاع القيمة إلى عملية طبيعية أو ما يرتب عليها ، ومن ثم فهو يرفض الأخلاق التطورية التي ترى أن القيمة هي كل ما يعين على البقاء أو تحقيق مصلحة النوع " المرجع السابق / ص ٣٣٩ ، وهذا المذهب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمذهب كانط في الأخلاق المطلقة وكذلك بالمذاهب المثالية عامة " . المرجع السابق ص ٣٤٠ .

(٣) راجع أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٣٥ / مرجع سابق .

المال والاستحواذ على القوة الاقتصادية ، وطالما أن الأخلاق ظاهرة اجتماعية يقوم المجتمع بإرساء دعائمها ومساندتها أو محاربتها إذا أخلت بالروتين الاجتماعي الموضوع ، فهي تنظر فيما هو كائن لا فيما ينبغي أن يكون ، وطالما أن الأخلاق ظاهرة اجتماعية فإنها تعود إلى التربية . (١)

فديوي يؤمن بأن كل شيء في حياة الإنسان قابل للتغيير إن دعت الضرورة إلى تغييره ، فلا بد من تغيير قواعد الأخلاق إن اقتضى الإصلاح هذا التغيير ، ولا بد من تغيير أسس السياسة والاقتصاد والتربية وكل شيء مما قد يظن به الدوام والثبات . في سبيل تغيير الحياة تغييراً يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد . (٢)

فهو لم يستطع إلا أن يكون بفلسفته داعياً إلى تغيير القيم ، لأن الحياة التي أحاطت به كانت تسير بالفعل نحو التغيير ، ويمكن القول أن ديوي استبدل مشكلة الصدق في الفلسفة الكلاسيكية بمشكلة القيمة ، وهذا الاستبدال يرجع إلى نظريته الجديدة لمهمة الفلسفة بوجه عام .

وعلى ذلك فإن " علم الأخلاق في رأيه ليس علماً نظرياً مجرداً ، وإنما هو جزء من الحياة متمم لها ، إن ديوي يرفض مع جيمس التسليم بموقف الوضعية المنطقية من الأخلاق ، إذ يستبعدون الأخلاق المعيارية من نطاق العلم ، لأن قواعد الأخلاق ومبادئها ليست قضايا علمية يمكن التثبت من صحتها بالتجربة " . (٣) حيث أن " جميع الأفكار في نظر العمليين أساس للعمل ، وهي صادقة بمقدار ما تنتج من ثمار وما تحقق من منافع " . (٤)

"إنه جعل أساس هدف الإنسان في الحياة العمل المنتج النافع ، وبناء على ذلك اعتبر كل فكرة أو اعتقاد يؤدي إلى العمل الناجح أمراً قيماً ، بصرف النظر عن قيمتها

(١) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ١٥٩ / مرجع سابق . .

(٢) راجع فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي / ص ١١٨ / مرجع سابق .

(٣) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٠ / مرجع سابق .

(٤) المرجع السابق / ص ٢٧٢ .

العلمية أو المنطقية أو الحقيقية ، ومن ثم اتفق عنده أن معيار الخطأ والصواب أو الحق والباطل ، ومعيار الأخلاق هو تحقيق المنفعة العملية " . (١)

وبناء على ما سبق فإن الأدوات " صورة من صور الاتجاه النفعي أو فرعاً متطوراً عنه ، حيث اتفق المذهب البرجماتي مع النفعية في إرجاع الأخلاق إلى نتائج الأعمال دون بواعثها ، ويهتم البراجماتي بالنجاح العملي وما له من قيمة معنوية ، عكس النفعية التي ترد الأخلاق إلى تحقيق رغبات شخصية أكثر من خدمة اجتماعية إنسانية ..... وإن كان ديوي يرفض الأفكار المطلقة والمبادئ الميتافيزيقية ، فإنها في نظره إذا أدت إلى تحقيق عمل نافع لا مانع من قبولها ، ولو لم تكن صحيحة في ذاتها ، لأن قيمة الشيء ليست في حقيقة وجوده ، بل فيما يحقق من فائدة ، ولو لم يكن موجوداً في حقيقة ذاته ، والخطورة في هذا المذهب أن ديوي أرجع المثل العليا إلى نتائج الظروف الواقعية للإنسان ، فهي ليست مبادئ مطلقة ثابتة يضعها الفلاسفة ، كما أنها ليست من وضع المجتمع ، ولا من وضع السماء " . (٢)

### القيم الدينية عند ديوي :

" لقد كان مدخله إلى الدين قائماً لا على أساس محاولة فهمة كفيلسوف ، بقدر ما كان ذلك على أساس تحليله كناقذ ومصلح " . (٣)

يقول ديوي : " إذا كان للبرجماتية أي دور مفيد للدين ، فهي أنها أحلت محل قاعدة الإيمان بما فوق الطبيعة ، التي كانت سائدة في العقيدة الدينية التقليدية ، إيماناً بدلاً منه يقوم على أساس ما تكشف عنه التجربة العادية من احتمالات في هذا المجال " . (٤)

(١) مقداد يالجن محمد علي / علم الأخلاق الإسلامية / ص ٣٩ / مرجع سابق .

(٢) مقداد يالجن / علم الأخلاق الإسلامية / ٣٨ / مرجع سابق .

(٣) بيتز كاز / تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام / ص ٣٤٨ / ترجمة حسني نصار / مراجعة مراد وهبة / مكتبة الأنجلو المصرية / متندى سور الأزيكية .

(٤) المرجع السابق / نقلاً عن جون ديوي / إيمان مشترك / نيوهافن / جامعة يال / ١٩٣٤ م .

فديوي يؤمن بوجود التجربة الدينية شأنه شأن جيمس ، ولكنه يختلف عنه في كون هذا الأخير استشهد بالتجربة الدينية ليبين أن الإله ماثل بالفعل في تجربتنا وأن له صفات أخلاقية في الجوهر مرتبطة بالواقع الإنساني . (١)

وتأخذ هذه التجربة ما يأخذه العلم من أهمية ، لأن الإنسان يستخدم العلم ويعيش على الدين فلا تعارض بينهما في نظر جيمس ، في حين نجد ديوي يربط الإيمان بالحرية ويجعل القيم الدينية في خدمة حرية الفرد ويبقيها بعيدة عن جميع أنواع العلم الكوني ، وهو بهذا لا يخفي التعارض بين القيم الدينية كما يتصورها هو ، وبين الشرائع والأديان ، لأن الناس يمارسون الإيمان في الواقع وضمن الخبرة ، وأن الله هو رمز الإتحاد بينهم . (٢) وهذا يعني أن ديوي اتجه بالقيم الدينية إلى الخبرة ، واعتبر الإخلاص والتفاني في العمل ، والدفع بالروح الجماعية داخل المجتمع من القيم الإيمانية .

يقول ديوي : " فلو نظرنا إلى الدين من خارجه ، لوجدنا أنه .....عبادة من جهة ، وبناء عقائدي من جهة أخرى ....إلا أن ذلك هو الظاهر فقط ...أما لو تعمقنا بحث الدين وتطوره ، لتحطم أمامنا هذا الظاهر ...ولاستبان لنا أن كل دين ، إنما يضرب بجذوره في الحياة الاجتماعية والفكرية لأي مجتمع ، أو جنس ، وأن كل دين هو تعبير عن عادات ومواقف عقلية لأي شعب " . (٣)

وفي عام ١٩٨٤ م دُعي ديوي إلى إلقاء محاضرة بعنوان " التجديد " قال فيها : " إنه على الكنيسة إزاء التطورات التي أحدثها العلم الحديث أن تعيد صياغة عقائدها عن الوحي والنبوة ، وأنه في حالة كهذه ، يكون من المهم للفرد أن يعيد من خلال حياته الدينية ، صياغة أفكاره عن ماهية الحقيقة الروحية ، ومدى سلطانها عليه ، بعد أن أظهرنا

(١) راجع هيربرت شنيدر / تاريخ الفلسفة الأمريكية / ص ٣٩٤ / ترجمة محمد فتحي الشنيطي / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة ١٩٦٤ م .

(٢) المرجع السابق / ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٣) راجع بيتز كاز / تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام / ص ٣٥٠ ، ٣٥١ / نقلاً عن جون ديوي / أعماله الأولى / الناشر و آن .

العلم على الواقع - وما زال يدخر المزيد منه - فيما اكتشفه من حقائق واقعية تجسدها تجارب البشرية ، التي ما تزال في حاجة إلى أن توليها المزيد من رعايتها " . (١)

فديوي ينكر الوحي والنبوة وفي نفس الوقت " يعلى من شأن العقل والمعرفة والتواصل الفكري ، فيقول : إن معظم القيم الأخلاقية والميتافيزيقية والدينية التي دخلت في تكوين تراث الإنسان الحديث ..... انحدرت من العلم والبحث والذكاء ، وإذا كان للدين ينبوع حية وجذور ممتدة في صميم التجربة البشرية ، فما ذلك إلا لأن الخبرة الدينية متأصلة في أعماق الحياة المشتركة للجماعة والخبرة المشاعة بين أفراد تلك الجماعة . ولما كان البحث هو المصدر الخصب للنمو البشري وللتجدد المستمر للقيم ، فليس بدعاً أن يرى فيه ديوي موضوعاً ملائماً للتبجيل أو التقديس الديني ، خصوصاً وأن ثماره المتصلة هي دائماً وباستمرار موضوعات للاستمتاع الحر من جانب أفراد الإنسانية جمعاء " . (٢)

مما سبق يتضح أن ديوي يرجع القيم الدينية إلى مصدر واحد هو البحث ، ولذلك وصف بعض النقاد ديوي بأنه فيلسوف طبيعي أي أن يدين بالمذهب الطبيعي (٣) ، بينما يذهب جمال الدين الأفغاني (٤) إلى نعتة بالدهري (١) ، والدهريون هم الذين

(١) المرجع السابق / ص ٣٥١ / نقلاً عن نفس المصدر .

(٢) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ٧٤ / مرجع سابق .

(٣) المذهب الطبيعي في الفلسفة العامة : " هو القول أن الطبيعة هي الوجود كله ، وأنه لا وجود إلا للطبيعة ، أي للحقيقة الواقعية المؤلفة من الظواهر المادية المرتبطة بعضها ببعض على النحو الذي نشاهده في عالم الحس والتجربة ، ومعنى ذلك أن المذهب الطبيعي يفسر جميع ظواهر الوجود بإرجاعها إلى الطبيعة ، ويستبعد كل مؤثر يتجاوز حدود الطبيعة ويفارقها ، ويسمى أصحاب هذا المذهب بالطبيعيين ، وهم الدهريون الذين ينكرون وجود الصانع المدبر ، ويزعمون أن العالم وُجد بنفسه دون حاجة إلى علة خارجه عنه " . جميل صليبا / المعجم الفلسفي / ج ٢ / ص ١٧ / مرجع سابق .

(٤) جمال الدين الأفغاني " ١٢٥٤هـ - ١٣١٤هـ " " ١٨٣٨ م - ١٨٧٩ م " : هو محمد بن صفدر الحسيني ، فيلسوف الإسلام في عصره وأحد الأفاذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة ، ولد

يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . (٢) ولا أرى فرقاً بين الدهري والطبيعي ، فكل اللفظين يؤدي نفس المعنى وهو إنكار الإله .

ويفرق ديوي بين الدين والتدين ، فالدين قوة عليا .... ، أما التدين فهم الناس الذين لهم تجارب دينية تأتيهم عن طريق أداء شعائر وطقوس ، لذلك نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نقول هناك دين بل هناك أديان كثيرة ، كل فرد له دين يختلف عن الآخر بحسب اختلاف تجاربهم الدينية . والإنسان يولد اجتماعياً قبل أن يولد متديناً (٣) ، ينشأ في جماعة لها نظم وتقاليد وأعراف ثم يعرف طريقه إلى الكنيسة ، كما أن الأديان الموجودة مثقلة بميراث من الطقوس والعقائد وبخاصة الغيبية . . . . . وفي النهاية توصل ديوي إلى فكرة الدين الطبيعي ، دين الإنسانية الذي نادى به فلاسفة سابقين مثل أوجست (٤) كونت . (١)

في أسعد أباد بأفغانستان ، كان يكتب في جريدة مصر ، أنشأ جريدة العروة الوثقى . راجع خيرى الدين الزركلي / الأعلام / ج ٦ / ص ١٦٨ ، ١٦٩ / ط ١٥ / دار العلم للملايين / ٢٠٠٢ م .

(١) كلمة دهرية : تعني إنكار الله ، بمعنى أن لا شئ خارج الطبيعة ، فالطبيعة مستكفية بنفسها عن خالق يوجددها . راجع مراد وهبة / المعجم الفلسفي / ص ٣١٢ / دار قباء الحديثة / ٢٠٠٧ م .

(٢) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ١٥٣ / مرجع سابق .

(٣) هذا كلام مغلوط لا أصل له من الصحة ، فالإنسان يولد متديناً بالفطرة ، حيث أن الله سبحانه وتعالى فطر الناس على الإيمان به ، والدليل على ذلك قوله تعالى : " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين " سورة الأعراف / آية " ١٧٢ ، ١٧٣ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " صحيح مسلم / ج ٤ / كتاب القدر / باب ٢٢ / كل مولود يولد على الفطرة / ص ٢٠٤٧ / رواه أبو هريرة / رقم الحديث ٢٦٥٨ .

(٤) أوجست كونت : عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي ، ولد عام " ١٧٩٨ " م أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن ، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية على الملاحظة ، هو مؤسس الفلسفة الوضعية ، وتلميذ لسان سيمون ، الذي كان لأفكاره أثر كبير على نظرياته التي عرضها فيما بعد في أهم مؤلفاته " محاضرات في الفلسفة الوضعية " ، عاش في أسرة شديدة التعلق بالنصرانية ، إلا أنه كفر

وهذا الدين يتمثل في الاعتراف بالإنسانية بوصفها الكائن الأعلى ، فالإنسانية لا الدولة هي الكائن الحقيقي ، بل هي الحقيقة الواقعة الوحيدة ، وهي الكيان الوحيد الجدير بالتبجيل الديني في عصر نضوج البشرية . (٢)

وقد شاعت ديانة الإنسانية هذه في الغرب ، وصار لها في كل بلد كاهن أكبر، وقد صيغ المذهب الإنساني في أمريكا في عام ١٩٣٣ م في بيان الإنسانيين الذي تضمن إنكار وجود الله تعالى وخلقه لهذا الكون ، وإنكار النبوة والرسالة .

وفيما يلي بيان الإنسانيين المشهور :

- ١- الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً .
- ٢- الإنسان جزء من الطبيعة ، وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها .
- ٣- ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التاريخي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة والطبيعة والوراثة الاجتماعية .
- ٤- لقد ولي الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله .
- ٥- يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان ، ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي .
- ٦- إن التحقق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان . وقد أمضى هذا البيان جون ديوي وآخرون من دعاة الإنسانية . (٣)

---

بالنصرانية وجميع الأديان . راجع عبد الرحمن بدوي / موسوعة الفلسفة / ج ٢ / ص ٣١٢ / مرجع سابق ، راجع أيضاً الموسوعة الفلسفية المختصرة / ص ٣٥٦ / مرجع سابق .

(١) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ص ١٥٥ ، نقلاً عن Fuller, B.A.G.A, History of Philosophy, third Edition, revised by Sterling M. Memurrin, New Delhi, Oxford & Ibh Publishing Co., 1955, pp547-548.

(٢) راجع هيربرت ماركيزو / العقل والثورة ص ٢٤٤ / ترجمة فؤاد زكريا / ط الثانية / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ١٩٩٧ م .

(٣) راجع غالب علي عواجي / المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها / ص ٨٣٤ / ط أولى / المكتبة العصرية الذهبية / ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م .



مما سبق يتضح لنا أن جون ديوي فيلسوف طبيعي ، يقر التوصل إلى ديانات إنسانية طبيعية بعيدة عن الدين السماوية الذي أنزله الله تعالى على رسله وأنبيائه ، حتى يتسق مذهبه الفلسفي في إطار ما يؤمن به . وسوف نقوم بالرد على تلك المزاعم الباطلة في المبحث التالي إن شاء الله .

ويمكننا من خلال هذا المبحث أن ننتهي إلى الاستنتاجات الآتية :

١- يتحدث ديوي عن القيم بكل أشكالها " الأخلاقية والدينية والاجتماعية " ويردها جميعاً إلى الخبرة ، فهي مصدرها ، تلك الخبرة القائمة على التفاعل بين الفرد وبيئته .

٢- تتميز القيم عند ديوي بواقعيته ، لأنها تتعلق بالإنسان كعنصر فعال ، وهي قيم متغيرة ومتجددة بتغير الواقع لأنها ثمرة الخبرة التي تتغير بتغير الأفراد وظروفهم .

٣- تمثل القيم في نظر ديوي وسائل وغايات ، وتتميز بالنسبية لأن وجودها ليس مطلقاً ولا نهائياً .

٤- يدعو ديوي إلى تطبيق المنهج التجريبي على القيم بكل أصنافها ، ويلح على دراستها دراسة تتماشى والتطور العلمي .

٥- وأخيراً الإنسان هو مصدر القيم ، والمعرفة ، ومعيار للحكم بالخير أو الشر .

المبحث الخامسنقد البرجماتية الأدائية في ضوء العقيدة الإسلامية :

إننا نعيش اليوم في عصر يشهد صراعاً محتدماً في شتى فروع المعرفة الإنسانية بين الأمم والشعوب القوية منها والضعيفة ، وتحاول كل أمة أن تطرح فكرها ومعطياتها الحضارية للناس في محاولة منها لإثبات وجودها ومقدرتها على الثبات والتحدي . وفي هذا الخضم تظهر البرجماتية الأدائية كإحدى الفلسفات المعاصرة ، التي اجتذبت إليها اهتمام كثير من الدارسين ، لما حققت من نجاح في المجتمعات التي نشأت فيها كالمجتمع الأمريكي ، ولما كان المسلمون معينين كغيرهم بهذه الفلسفة نظراً لانتقال آثارها إلى مجتمعاتهم ، كان واجباً علينا أن نحدد موقفنا منها والنقد الذي تعرضت له . فنقول : لقد تعرض ديوي للنقد الشديد من جانب الباحثين ، وتمثل تلك الانتقادات في النقاط التالية :

**الأدائية منهج سلبي لاكتشاف الأفكار الخاطئة وهي التي ليست لها آثاراً عملية :**

" إن الأدائية بل والبرجماتية بوجه عام ، لا تقدم لنا بحثاً إيجابياً عن الحقيقة . إذ أنها مجرد منهج لاكتشاف الأفكار الخاطئة ، وهي التي ليست لها آثار علمية . وهذا منهج سلبي لا إيجابي ، لأنها لا تهدف إلا إلى استبعاد الأفكار الخاطئة تلك التي لا تكون لها هذه الآثار العلمية . والاستبعاد - كما هو واضح - منهج سلبي للكشف عن الحقيقة وليس إيجابياً بحال من الأحوال " . (١)

" وذلك لأنه من المقدمة القائلة " إن كل القضايا الصحيحة أو الحقيقية لها آثار عملية " يريد المذهب البرجماتي أن يستتج قضية أخرى وهي " إن كل القضايا التي لها آثار عملية قضايا حقيقية أو صحيحة " وهذا قلب للقضية ينظر إليه المناطقة والفلاسفة على أنه قلب غير مشروع ، وذلك لأننا إذا قلنا إن كل الغربان طيور سوداء ، لا يُسوغ لنا هذا القول أن نحكم بأن كل الطيور السوداء غربان ، وإنما كل ما نستطيع أن نستتجه من هذه القضية ، هو أن الطير الذي ليس له لون أسود لا يمكن أن يكون غرباً ، وهذا يجعلنا

(١) محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٨٢ / مرجع سابق.

نستبعد الطيور غير السوداء من دائرة الغربان ، والاستبعاد منهج سلبي للكشف عن الحقيقة ، وليس إيجابياً بحال من الأحوال ، وهذا ما يحدث تماماً بالنسبة للقضية " كل القضايا الحقيقية أو الصحيحة لها آثار عملية " فكل ما نستطيع أن نستنتج من هذه القضية ، أن القضية التي ليست لها آثار عملية لا يمكن أن تكون صحيحة أو حقيقية ، أي أنها قضية خاطئة ، وهذا يجعلنا نستبعد من دائرة القضايا الصحيحة القضايا التي ليست لها آثار عملية . والاستبعاد منهج سلبي في الكشف عن الحقيقة ، وليس إيجابياً ، لأنه يرشدنا فقط إلى الخطأ ، ولكنه لا يقودنا إلى الحقيقة . إنه يكفي بأن يقول لنا : إن هذه القضية غير صحيحة أو خاطئة لأنه لا يوجد لها آثار عملية ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم بصدق القضية اعتماداً فقط على أن لها آثار عملية . " (١)

" وفضلاً عن ذلك فإن معيار الحقيقة لا يمكن أن نحصره فقط في الميدان الضيق المحدود الذي يرضيه البرجماتي ، وهو " الآثار العملية للفكرة " فصدق القضايا العلمية والأخلاقية مثلاً ليس محصوراً فيما ترجمه هذه القضايا من آثار عملية في دنيا الواقع والعمل الناجح ، فقد آمنت الإنسانية على مر العصور بمفاهيم أخلاقية كثيرة ولكنها - على الرغم من إيمانها المطلق بها - لم تحاول أن تبحث عما لها من آثار عملية ، .... ومع ذلك ستظل تقييم لها وزناً وتولي لها الاحترام الواجب " . (٢)

ويقدم " د توفيق الطويل " تحليل رائع ورد حاسم على مسألة تعليق صدق الاعتقاد وصحته على نتائجه وآثاره فيقول وهو يناقش ديوي في هذه المسألة : " هب أن إنساناً قال لي : هل شربت قهوة في فطورك هذا الصباح ؟ الرجل العادي يستعين على الإجابة على هذا السؤال بمحاولة تذكر ما حدث ، أما إذا كان من أتباع ديوي فإنه يترتب حتى يتصور أولاً أنه يعتقد أنه شرب القهوة في فطوره ، ثم يرى ما يترتب على هذا الاعتقاد من نتائج - إن كانت له نتائج - ثم يعود فيتصور أنه يعتقد أنه لم يتناول قهوة في فطوره ، ثم يرى ما يترتب على هذا الاعتقاد الجديد من نتائج - إن كانت له نتائج - ثم

(١) يحيي هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ص ١٦١ / ط التاسعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع /

١٩٨٩ م . بتصرف يسير .

(٢) المرجع السابق / ص ١٦١ ، ١٦٢ .

يأخذ بعد هذا في الموازنة بين هاتين المجموعتين من النتائج ليرى أي الاعتقاد أدعى إلى الرضا وأجلب للاطمئنان ، وإلا اعترف بأنه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال .

بل كيف له أن يعرف نتائج اعتقاده بأنه شرب القهوة في فطوره ؟ إذا قال : إن النتائج هي كذا وكذا ، وجب أن يعرف مدى خيريتها أو شريرتها وأن يختبرها بدورها عن طريق ما يحتمل أن يترتب عليها من نتائج ، وإذا تيسر ذلك كيف يحكم بأن نتائج اعتقاد منهما أدعى من نتائج الاعتقاد الآخر إلى الرضا والاطمئنان ؟ (١)

### الأدائية إمتداد غير المشروع لفكرة المنفعة لدى البرجماتيون:

" يلاحظ الباحثون ذلك الامتداد غير المشروع لفكرة المنفعة ، فقد كان جيمس والبرجماتيون يفخرون باتساع أفقهم ، ولكن الحق أن هذه الروح الفضفاضة تبلغ حداً يؤدي إلى القضاء على كل معنى لكلمة النافع ، فالنافع في اللغة المتداولة هو ما يفي بحاجة حيوية ، إلا أن البرجماتيين قد أضفوا على كلمة الحاجة معاني بلغت من الكثرة حداً لم تعد معه تدل على شيء ، حتى ولا كلمة النافع ذاتها ، فهناك حاجات ترمي إلى حفظ الحياة والعمل على استمرارها ، ولكن من الممكن أن نطلق اسم الحاجة على ما يعبر عن أكثر الميول الوجدانية تنوعاً : فالمرء بحاجة إلى أن يكون محترماً ، محبوباً ، كما أنه بحاجة إلى أن يحب ، وإلى أن يرى من يحبهم سعداء ، والغيورون الحاقدون بحاجة إلى أن يروا الآخرين تعساء وأقل سعادة منهم ، والمرء بحاجة إلى الإيمان بوجود الله ، وخلود النفس ..... كما أن هناك حاجات عاطفة وعقلية كالحاجة إلى المعرفة والفهم ، وهكذا نلاحظ أن حاجات الإنسان والمنافع التي تناظرها تبلغ من التنوع حداً يجعل كل تعريف للحقيقة بالمنفعة ينتهي آخر الأمر إلى أنه لا يوضح من طبيعتها أي شيء " . (٢)

" ولا جدال أن الحقيقي نافع على نحو ما ، إلا أن ذلك لا يستتبع القول بأن المنفعة هي أساس لتعريف الحقيقة . فالحقيقي نافع لأنه " حقيقي " قبل أي اعتبار للمنفعة ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المذهب البرجماتي يعرف الحقيقة بأنها ما يفي

(١) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٧ / مرجع سابق .

(٢) بول موي / المنطق وفلسفة العلوم / ص ١٦ / ترجمة فؤاد حسن زكريا / دار نهضة مصر .

بالحاجة ، غير أن أول ما نحتاج إليه عندما نبحث عن الحقيقة هو ألا نكون برجمائين ، ومعنى ذلك أن القاعدة الأساسية التي نضعها عندما نشغل أنفسنا بالكشف عن الحقيقة هي أن نصرف النظر عن كل اعتبار للمنفعة ، ولو تطرق الشك إلى نفوسنا ، وأما بشئ لأننا بحاجة إلى هذا الإيمان ؟ لفقد الإيمان إذن كل قيمة له . ومرة أخرى نقول : " أن الحقيقي نافع لأنه حقيقي ، وليس حقيقياً لأنه نافع " . (١)

" ولتصور الحالة العقلية لمريض يقول لطيبه : " لا تقل لي سوى ما أحتاج إلى تصديقه . ألا يكون قوله هذا توسلاً إليه أن يكذب ؟ وهكذا ينتهي الأمر بالبرجماتية إلى أن تكون نظرية الأكذوبة الحيوية ، التي تقوم على أساس من نزعة الشك " . (٢)

" إن وضع الفكرة ذات النتائج المرضية مكان مفهوم الحقيقة ، معناه فتح الباب لأي خيال لذيذ . فماذا يمكن أن يرضي الإنسان أكثر من استمراره في الاعتقاد بأنه ذكي بينما هو في الواقع أبله ؟ إن العالم ملئ بالكثير من السخف الذي يستشعر معه الإنسان قسطاً من المتعة " . (٣)

" إلا أن الخطورة تكمن عندما نتابع هذه الفلسفة في نتائجها البعيدة ، فنجد أنها تؤدي في النهاية إلى جحد الألوهية ، وهذا ما صرح به فلاسفة البرجماتيزم ، حيث أن الفكرة عن الله في نظر هؤلاء ، قد يأتي عليها حين لا تؤدي وظيفة ظاهرة في الحياة المادية ، فعندئذ تنبذ الفكرة من أساسها ، لأنها لا تدير آلة ولا تحرك جهازاً وبذلك يكون الكفران والضلال " . (٤)

### الأدائية تقطع أي صلة وأي علاقة بين الإنسان وبين خالقه :

تنظر البرجماتية الأدائية للإنسان على أنه كل متكامل ، لا تنفصل قواه العقلية والجسمية بعضها عن بعض ، وهذه النظرة رغم أنها تجعل من الإنسان شيئاً ثميناً يستحق العناية والنمو ، إلا أن تلك النظرة في الحقيقة ، نظرة مادية بحتة أغفلت جانب الروح

(١) المرجع السابق / نفس الصفحة / بتصرف .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ٨٤ / مرجع سابق .

(٤) جمعة الخولي / الاتجاهات الفكرية المعاصرة / ص ٦٦ / ط أولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

وقطعت أي علاقة أو ارتباط بينه وبين خالقه ، في حين ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه ذلك الكائن الذي كرمه الله ، وهياً بما حباه من نعمة العقل والتدبير لإعمار الأرض واستخراج كنوزها وإقامة شرع الله فيها . (١)

وهو كيان مزدوج التركيب بين الجانب المادي والجانب المعنوي ، وقد أعلى الإسلام من الجانب المعنوي " الروح " ، ولم تغفل الجانب المادي " الجسم " ، يقول الحق تبارك وتعالى عن قصة خلق الإنسان : " الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه " . (٢)

وذلك خلافاً للبرجماتية الأدائية التي ركزت على الجانب المادي وحده ، واستصغرت حقيقة الروح وارتباطها بالنشاط البدني . وحين تحكم الروح هذا الكيان يأخذ الإنسان وصفه الطبيعي الذي ينسجم مع نشأته ، فهو لا يكبت الجسد ولا يغلب المادة على الروح ، وبهذا يكون الإنسان مهياً لسلوك أحد الطريقتين ، طريق الخير أو طريق الشر(٣) ، قال تعالى : " وهديناه النجدين " . (٤)

بالإضافة إلى أن ديوي يذهب إلى أن العقل في سلوك الإنسان ذو طابع معين ، وليس هو بالطبع الكائن الروحي الكامن في الجسم كما يقول المثاليون ، كما أن كل فكرة هي عين الفعل والسلوك المحسوس ، والفكرة الصائبة هي التي تنتهي بنا إلى ما نبتغي ، والفكرة الخاطئة هي التي لا تؤدي الغاية المقصودة فمن المستحيل فصل الفكرة عن التطبيق العملي .

(١) راجع محمد خضر عوض / دراسة ناقدة للفلسفة البراجماتية في ضوء المعايير الإسلامية / ص ٢١ / رسالة ماجستير / قسم أصول التربية / الجامعة الإسلامية غزة / ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٠ م / .

(٢) سورة السجدة / آية ٧ - ٩ .

(٣) راجع محمد خضر علي / دراسة ناقدة للفلسفة البراجماتية في ضوء المعايير الإسلامية / ص ٢٢ /

مرجع سابق / بتصرف

(٤) سورة البلد / آية " ١٠ " .

" ومعنى هذا بصراحة أن العقل والفكر جزء من السيارة والطائرة والسفينة ، وليس في دماغ المصمم والمخترع تماماً كالباب والدولاب ، ووجه من وجوهها كالدهان والألوان ! وأيضا معنى هذا أن التخطيط والتصميم ليسا علماً بل ولا شيئاً حتى ولو كان صحيحاً إلا أن يبرز للوجود والعيان ، وكذلك أفكار العظماء المصلحين إلا إذا سمع الناس لهم وأطاعوا ! وأيضا معنى هذا أنه لا فرق بين الجرائم عن سهو ونسيان وعن قصد وعمد ما دام الفعل من حيث هو يوجب المؤاخظة والعقوبة ، واشتهر عن أحد رؤساء أمريكا السابقين أنه قال إذا كانت القنبلة الذرية تحقق لي النصر في الحرب فإن استخدامها حق وواجب . " (١)

إن الطبيعة الإنسانية في الإسلام وحدة متكاملة ، قائمة على تداخل وامتزاج وتشابك دقيق الحبكة شديد التعقيد بين المادة والروح ، وليس في الإسلام انفصال بين روح وجسد أو انشقاق بين عقل ومادة ، وليس للإنسان جسماً فقط كما رأى أصحاب الاتجاه المادي ، وإنما الإنسان جسم وروح ، والروح ليست من طبيعة مادية ، كما أنها ليست مجرد أداء الجسم لوظائفه . ولست هذه الروح موضوع ملاحظة حسية ، أو تحقيق تجريبي ، وكذلك الحال بالنسبة للحياة العقلية . (٢)

### الأدائية اختباراً للأفكار بمحك التجربة :

" إن قول ديوي بأن الحق ثمرة التحقق من منفعة الفكرة الصحيحة بالتجربة ، يتنافى مع القول بأن صدق الحكم أو كذبه مستقل عن العقل الذي يدركه ، فقولنا أن المريخ معمور بالناس حكم يحتمل الصدق والكذب ، وعجزنا عن التثبت من ذلك بالتجربة لا ينفي إمكان صدقه أو احتمال كذبه .

وشر ما يعاب على هذا الكلام غموضه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس حتى ظنوها تجربة الفرد ، ومن ثم خلطوا بين المذهب البرجماتي والسوفسطائي ، ولكن

(١) محمد جواد مغنية / مذاهب فلسفية وقاموس مصطلحات / ص ١٤١ / دار مكتبة الهلال - دار الجواد .

(٢) راجع / حسن إبراهيم عبد العال / مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية " التربية والطبيعة الإسلامية " / ص ٣١ / دار عالم الكتب للتوزيع والنشر / الرياض / ١٩٨٥ م .

الواقع أن البرجمائين قصدوا التجربة الإنسانية أو هي بتعبير أدق تجربة تصطبغ بصبغة اجتماعية ، فالمنفعة مقياس غير واف عند تمييز الحق من الباطل ، إننا يجب أن ننحي الحق بعيداً عن الخلاف بين الأفراد ، لأن اختلاف الناس على شكل الأرض ، لا يكون دليلاً على أن الأرض ليس لها شكل .

والواقع أن إسفاف هذا الاتجاه يبدو فيما سماه أصحابه بالقيمة المنصرفة أو الفورية ، وبها شبهوا القضايا بالسلع المعروضة في السوق ، قيمتها الحقيقية لا تقوم في ذاتها ، بل في الثمن الذي يدفع فيها كذلك الصدق أو الحق . ولعلنا إن تركنا فكرة الحق في مجال المعرفة وميادين الأخلاق والأديان ، إلى الحق في مجال السياسة ، لاحظنا أن البرجماتية عقلية أمريكية نراها في السياسة كما نراها في أي مجال آخر . " (١)

" إن إلحاح العاملين على اختبار الأفكار بمحك التجربة ، ينتهي بتحويل الأفكار إلى مجرد قواعد للعمل ، وقد أغفلوا النظر إلى الأفكار باعتبارها محاولة لوصف دقيق للعالم المادي الموضوعي ، إنهم يغفلون بل ينكرون القول بأن الأفكار انعكاس للحقيقة الموضوعية مستقلة عن العقل ، فالفكرة تنشأ عن العمل وتختبر به ، ولا تستطيع البرجماتية أن تفسر هذا تفسيراً معقولاً ، إنها لا تستطيع أن تفسر لنا حقيقة الفكرة ولا العمل ولا العلاقة بينهما ، لأنها تنكر موضوعية العالم الذي تعمل فيه التجربة وتنشأ عنه الفكرة، وإذا انهار الأساس ، انهار المذهب الذي أقاموه على هذا الأساس . " (٢)

### الأدائية تجعل المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية هو الخبرة:

ترى الأدائية أن المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية هو الخبرة ، والنشاط الذاتي للفرد ، أي أنها مكتسبة تأتيه من خلال تفاعله مع عناصر البيئة من حوله ، ومن خلال نشاطه وكفاحه في سبيل البقاء ، ومن أجل تأمين لقمة العيش والكساء والمأوى ، وكذلك من أجل التغلب على المشاكل التي تواجهه في الحياة .

فالأدائية ترى أنه لا قيمة لأي معرفة ما دامت غير صالحة للتطبيق في الحياة الحاضرة والمستقبلية ، إن وظيفة المعرفة المكتسبة للفرد هي أن تساعد في توجيه خبراته

(١) توفيق الطويل / أسس الفلسفة / ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ / بتصريف .

(٢) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٩ / مرجع سابق .



اللاحقة بحرية ووعي وتزوده بالأسس والحلول المختلفة لكافة المشكلات التي تواجهه في المستقبل . كما تتيح له حرية الاختيار والتعرف تجاه المواقف المختلفة ، فالأدائية تعلو من شأن الطريقة التجريبية وتعتبرها مصدراً مهماً للمعرفة ووسيلة أساسية للتحقق من صحتها . (١)

إن هذه النظرة تخالف نظرة الإسلام للمعرفة ، فمصدر المعرفة الأساسي هو الله سبحانه وتعالى ، كما قال في محكم كتابه : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون " . (٢) وقال أيضاً : " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً " . (٣)

أما المصدر البشري : فهو ما عرف بالاجتهاد والرأي ، ومن هنا كان مبدأ " الشورى " قال تعالى : " وأمرهم شورى بينهم " . (٤) أما الأمور المتنازع فيها ، فقد أمر القرآن بردها إلى أولى الأمر الذين أوتوا الفهم والحكمة ، قال تعالى : " ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " . (٥)

ولقد كرم الله سبحانه بني آدم ومنحهم أدوات التعليم ، من أجل أن يتابعوا في حياتهم بحثهم العلمي السليم ويكتشفوا أسرار هذا الكون الدالة على عظمة خالقه سبحانه وتعالى ، حتى يصلوا إلى معرفة عظيم صفاته ، وجليل حكمته ، ومن ثم معرفة ما يجب عليهم نحوه من طاعة وعبادة وشكر .

أما الذين يعطلون أدوات المعرفة التي وهبهم الله إياها ، أو يستخدمونها في حدود ظواهر الحياة الدنيا ، فهم لا ينتقلون من ذلك إلى معرفة خالقهم ، فأحرى بهم أن

(١) راجع جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ص ١٧٧ ، ١٨٠ / مرجع سابق . بتصرف ، راجع أيضاً

أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ص ١٧٦ ، ١٧٧ / ٤٣ / بتصرف .

(٢) سورة النحل / آية ٧٨ .

(٣) سورة النساء / آية ١١٨ .

(٤) سورة الشورى / آية " ٣٨ " .

(٥) سورة النساء / آية " ٨٣ " .

يقال عنهم صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون ، وذلك لأنهم عطلوا هذه الأدوات عما خلقت من أجله ، فهم وفاقدها سواء ، قال تعالى : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " . (١)

ولا ريب أن المعرفة في نظر الإسلام تتفق مع نظريات المعرفة المختلفة ، بل وتشملها جميعاً ، كالأدائية بل والبرجماتية بوجه عام والتي تقوم على الحواس والتجربة ، والمثالية التي ترى العقل مصدراً للمعرفة ، بل تزيد وتتميز بالمصدر الإلهي " الوحي " الذي هو من عند الله تعالى ، وإذا كان لكل معرفة ثمرة فثمرة المعرفة في الإسلام هي معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، ومعرفة الطريق الأمثل .

### الأدائية ما هي الإ تبرير نمط الحياة الأمريكية :

يستخدم ديوي المنهج العلمي في محاولة لتبرير نمط الحياة الأمريكي والدفاع عنه ، حيث أن الطريقة الأدائية تتطلب في رأيه بحثاً حراً لا تقيده العقائد ، وتجربة تتسع وتتطور باستمرار ، للبحث عن السبل المؤدية إلى تحسين التجربة الاجتماعية ، ولكن فهم ديوي للتجربة الاجتماعية بقي بعيداً جداً عن أن يكون عملياً ، تماماً كالفهم البراجماتي للتجربة عموماً . (٢)

" فالكثير من الباحثين يرى أن هذه الفلسفة جاءت انعكاساً للحياة الأمريكية بما تنطوي عليه من شهوة في الامتلاك ، وإمعاناً في الحياة المادية ، وإعلاء لقيمة الفرد ومصالحه إلى أقصى درجاتها ، فهي تعبر عن النظام الرأسمالي بما يرتبط به من مصانع كبرى ، وتجارة ضخمة ، ومشروعات هائلة ، وما يترتب على ذلك من ربح ومنفعة مادية يجب تسخير العمل البشري لبلوغ أقصى مداها ، وهذا النجاح العملي في دنيا الواقع الأمريكي هو أساس نظرية الحقيقة البرجماتية " . (٣)

(١) سور الأعراف / آية " ١٧٩ "

(٢) راجع مجموعة من الأساتذة السوفيات / موجز تاريخ الفلسفة / ص ٦٣١ / تقديم وترجمة توفيق سلوم / ط أولى / دار الفارابي / بيروت - لبنان / ١٩٨٩ م .

(٣) محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٧٨ ، ٧٩ / مرجع سابق .

كما يرى " ديوي " في الحياة الاجتماعية حشداً من الأحداث والمؤثرات الاجتماعية ، التي يتفاعل بعضها مع بعض ، ويتساوى بعضها مع بعض ، كالفن والسياسة والتربية والتجارة والأخلاق والصناعة ، ولكن محصلة هذه العوامل والقوى التي تفعل في اتجاهات مختلفة ، لا يمكن أن تكون موضوعاً للبحث الفعلي ، ولذا يتعذر قيام علم حقيقي عن المجتمع والظواهر الاجتماعية . وحتى في حل المشكلات الاجتماعية ينصحنا " ديوي " باللجوء إلى الطريقة التجريبية . (١)

ومن المحتم أن هذا المنهج سيؤدي بصاحبه إلى النزعة النسبية في الأخلاق . حيث أنه ينفي أي مبادئ أخلاقية ذات قيمة كلية ، فهي مجرد أدوات لا أكثر . وعلينا أن ننظر إلى أخلاقية السلوك من منظار قيمته في حل كل من المواقف الأخلاقية الإشكالية على حدة أي من منظار ذاتي محض . (٢) ولأهمية هذه الجزئية أفردتها بعنوان خاص بها في الفقرة التالية .

### الأدائية دعوة لنسبية الحقائق :

ذهب ديوي إلى أن المعرفة مرهونة بما تقدمه من آثار عملية ، وما دامت الحقيقة ناتجة عما تقدمه من آثار عملية ، إذ المنفعة تتعلق بشهوات المرء وأهوائه ، فما ينفعني حق بالنسبة لي ، وكذلك ما ينفعك حق بالنسبة لك حتى وإن كانا متناقضين في الواقع ، فلم يعد هناك معيار خارجي للحكم على الشيء ، بالصدق أو الكذب ، وهذا يذكرنا " بالسوفسطائيين " (٣) ، الذين أكدوا نسبية الحقائق ، فالشيء الواحد - بناء على المعيار

(١) مجموعة من الأساتذة السوفيات / موجز تاريخ الفلسفة / ص ٦٣١ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) السوفسطائيون : هم معلموا خطابة وفلسفة في اليونان قديماً ، سادوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، لم يكونوا مدرسة ولكنهم يشتركون في بعض الآراء العامة . فهم يرفضون الدين ويفسروا الظواهر الطبيعية تفسيراً عقلياً وينادون بالنسبية في المسائل الأخلاقية . راجع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين / الموسوعة الفلسفية / ص ٢٥١ / اشراف روزنتال - يودين / ترجمة سمير كرم / مراجعة د. صادق جلال العظم / - جورج طرابيشي / ط الثانية / دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت / ٢٠٠٦ م

البراجماتي - " حقاً وباطلاً بالنسبة إلى شخصين أو جماعتين ، اختلفت ظروفهما ، فأسدت فكرة ما لأحدهما الفائدة دون الآخر ، وتؤدي أيضاً إلى أن تكون فكرة واحدة بالنسبة إلى شخص واحد حقيقة عندما تسدي له النفع في وقت ما ، وباطلة في وقت آخر عندما لا تسدي له هذه الفائدة لاختلاف معيار الظروف والملاسات " . (١)

وهذا يؤدي إلى الجمع بين المتناقضات ، فالشخص الواحد يؤمن بالشئ ويكفر به في آن واحد تبعاً لهذا المعيار ، الذي يجعل المنفعة قبل كل شئ . " فالملحد الذي لا يؤمن بالقضية الدينية ويعتبرها وهماً وباطلاً قد يرى فيها الضرورة الاجتماعية ، فتكون حقاً وصدقاً ، في حين هو نفسه لا يؤمن بها ويراها كاذبة " . (٢)

وعلى هذا التفسير يكون هذا المذهب جامعاً - تبعاً لمعياره - بين الشئ ونقيضه في وقت واحد من جهة واحدة ، وفي هذا خروج على مبدأ عدم التناقض . وعلى ذلك فإن هذه الفلسفة بقصرها القيمة المعرفية على العمل النافع فقط ، قد حددت القدرة الإنسانية ، وجعلتها عبارة عن أدوات حسية متجهة نحو العمل ، ولا عبارة بالإدراك العقلي أو الدين في توجيه شؤون الحياة .

وفي نفس الوقت تدعو إلى مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " (٣) إذ يسعى كل فرد إلى اكتساب الثمرة المرضية له بأي وسيلة كانت مما تؤثر على المكانة الأخلاقية في المجتمع ، إذ بهذا المعيار تتلاشى المعايير الأخلاقية فيسود البطش والقوة . (٤) فلو كان

(١) الشيخ عبد الله نعمه / عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة / ط الثانية / ص ١٠٥ ، مؤسسة عز الدين - بيروت / ١٩٨٣ م .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) هذه النظرية أصلها يهودي ، وترجع إلى مبدأ أساسي في الفكر اليهودي وهي أن اليهود غير ملزمين بإتباع الأخلاق مع غيرهم . المستشار سالم علي البهنساوي / تهافت العلمانية في الصحافة العربية / ص ٤٤ / ط أولى / دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع / المنورة - مصر / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

(٤) محمد مصطفى أحمد البيومي / درجات المعرفة بين الدين والفلسفة والعلم / ص ١٩٥ / دار الفكر الجامعي / ٢٠١٠ م .

هناك شخص يعتقد أن الطريقة لحل مشكلاته الاقتصادية هي السطو على أحد البنوك ، وكانت هذه الفكرة صحيحة أحياناً ، لما يترتب عليها من نتائج عملية . (١)

" إنه يجب علينا أن نوحّد بين الوسيلة والغاية ، فالأخلاق وسيلة عامة لتوجيه سلوك الإنسان في الحياة ، وهي في الوقت نفسه غاية ، فالوسيلة والغاية لا تنفك إحداهما عن الأخرى ، ولهذا لا يصح أن نفصل بين الوسائل والغايات في النظرية الأخلاقية ، ولا أن نحدد أي هدف أخلاقي قبل معرفة الوسيلة الضرورية لتحقيقه ، وإلا كان ذلك على حساب أهداف أخلاقية أخرى ، فمثلاً قد ينقذ الرجل ماله على حساب شرفه أو وطنه ، وقد يعمل المرء من أجل تحقيق هدفه على حساب مصلحة أصدقائه ، فهو لجلب الخير لنفسه ارتكب شراً في حق غيره ، وهذا مخالف للأخلاق ، وهو عين ما ذهب إليه جون ديوي " . (٢)

" فالغاية لا تبرر الوسيلة ، إذ لا بد أن تكون الوسائل الأخلاقية سامية كالغايات تماماً ، ولا بد أن يكون العمل خالصاً وصواباً حتى يتقبل ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون " . (٣) فالآية ترسم طريق الفلاح بأن يتقي المسلم ربه بترك المحرمات ، وأن يتقرب إليه تعالى بأداء الواجبات والتمسك بالقيم الأخلاقية . (٤)

وأقول ما قاله د توفيق الطويل : إن " الخير - كالحق - مستقل عن الإنسان ، ومن ثم لا يختلف باختلاف العواطف والميول وسائر ما يصدر عن الذات ، ..... ولمبادئ الأخلاق قداستها بصرف النظر عما يحتمل أن يترتب عليها من نفع أو ضرر ، إنها

(١) راجع محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٨٤ / مرجع سابق .

(٢) مقداد يالجن محمد علي / علم الأخلاق الإسلامية / ص ٣١٦ / مرجع سابق .

(٣) سورة المائدة / آية " ٣٥ " .

(٤) راجع مجلة البيان / ج ٤٣ / ٥٥ / محمد ناصر / مقال بعنوان شيوع الأخلاق النفعية في العصر الحديث / عدد ٢٣٨ / المتمدن الإسلامي .

خطاب موجه إلى البشرية كلها ... إن أخلاقية الأفعال الإنسانية تقوم على بواعثها ولا تتوقف على آثارها ونتائجها " . (١)

" لقد كفرت أوروبا بالدين والأخلاق ونبذ المجتمع كل مقوماته المستمدة من هذين الاتجاهين ، وأصبحت القيم العليا هي القيم المادية النفعية تحدها ميكافيلية صريحة ، وأضحى التعامل الاجتماعي قائماً على الرابطة المصلحية وحدها ، ممثلة في عقد اجتماعي أو أخلاق تجارية ، وكما ترى فلسفة الذرائع البراجماتيزم ، لم يعد للأخلاق قيمة ذاتية ، وإنما يحكم على أي تصرف وتعامل من خلال ما ينجم عنه عملياً من المصلحة النفعية " . (٢)

إن " القيم الأخلاقية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، فالكذب رذيلة منذ خلق الله آدم وسيظل رذيلة إلى أن تقوم الساعة " . (٣)

و " سيطرة مثل هذه النزعة على سلوك الناس يحولهم إلى ذئاب ذوي أظفار وأنياب لا يتعاملون إلا بالمادة ، ولا يتواصلون إلا حيث يكون نفع ، ويوم تكون المنفعة غاية لكل حركة وهدفاً لكل علاقة ، فما أشقى الحياة يومئذ ، لأن تلك مرحلة تفقد فيها البشرية كل مقوماتها الكريمة وعناصرها الإنسانية ، ويستوي فيها الإنسان بالآلات ، وتغيب جميع مبادئ البر والعطف والرحمة والمواساة وسائر الأمور المعنوية التي تهذب الحياة وترطب جفافها " . (٤)

### الأداتية تحريف للفلسفة عن المسائل النظرية البحثية :

والحق أن فلسفة ديوي فلسفة للعلم الحديث ، ونقطة الضعف فيه تكمن في تأكيده المستمر للطبيعة الأداتية للأفكار مما يجعل المرء يتساءل " عما إذا كانت الفكرة في نفس الوقت ناحية أصيلة من الواقع المادي . فإذا أراد أن يتكلم دائماً بطريقة أداتية

(١) توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٨ / مرجع سابق .

(٢) سفر بن عبد الرحمن الحوالي / العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية / ص ٤١٠ / دار الهجرة .

(٣) المستشار سالم على البهنساوي / تهافت العلمانية في الصحافة العربية / ص ٤٣ / مرجع سابق .

(٤) جمعة الخولي / الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها / ص ٦٧ / مرجع سابق .

كان عليه أن يقول : ما دامت هذه النظرية أو الفكرة أو التعبير تعكس الواقع المادي الموضوعي بطريقة صحيحة ، فهي أداة فعالة لتعديل الحقيقة أو السيطرة عليها ، إذا قال هذا لخلص نفسه من تهمة الذاتية . . . إن الذي يجب قوله هو أن المعرفة التي تم اختبارها بالمعنى الأدائي ، أي المعرفة المضمونة المؤكدة ، إنما تصبح خطة للعمل وأداة لتغيير العالم لا لشيء إلا لأنها تعكس الحقيقة الموضوعية بطريقة مستقلة عن الإنسان . إن نجاح الإنسان العملي يثبت التطابق بين أفكارنا وبين الطبيعة الموضوعية للأشياء التي ندركها " . (١)

كما أن تأكيده على أن الفكر خطة للعمل ، يبعد الفكر عن الكشف عن الماضي والبحث عن الأحداث والأصول الفلكية ، إن هذا الموقف الأدائي يحرف الفلسفة عن المسائل النظرية البحتة ، عن معنى الحياة ، وأصل الوجود ، ومشكلة الشر . (٢)

بالإضافة إلى المسائل الميتافيزيقية التي لا تقع تحت المحك التجريبي ، فكلمة الله مثلاً تستبعد من البحث الفلسفي لأننا " سواء قلنا إن الله موجود أم قلنا إنه غير موجود فإنه لن يكون في استطاعتنا عن طريق التجربة الموضوعية المباشرة أن نتحقق من وجود أي فارق حقيقي بين معنى هاتين القضيتين " . (٣)

" ثم إننا نتساءل هل الواقع الفلسفي هو مجرد الواقع العملي المؤدي إلى خدمة الإنسان في حياته العملية - كما يدعي البرجماتي - أم أنه أرحب من ذلك وأكثر شمولاً ؟ إننا لو سلمنا بهذا لأصبحت الفلسفة كلها جرياً وراء تحقيق النفع العملي ولأصبح البحث عن الحقيقة بحثاً ثانوياً بالقياس إلى البحث عن النفع العملي ، وقد يؤدي هذا إلى هدم الفلسفة نفسها باعتبارها بحثاً إيجابياً عن الحقيقة . " (٤)

وأخيراً " إنه على الرغم من تطور العلوم واستقلالها بأنفسها عن الفلسفة بعد أن كانت كلها أجزاء وفروع لها ، فإن الفلسفة لا تزال لها موضوعاتها الخاصة التي لا

(١) جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ص ٢٣٧ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / ص ٣٧ ، ٧٦ .

(٤) يحيى هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ص ١٦٢ / مرجع سابق .

تتناولها العلوم الأخرى ، والتي تستقل هي بعبء البحث فيها ، مثل النظرة العامة في العالم وفي الحياة ، الوجود الإنساني ، وجود الله... إلخ" . (١)

**الأدائية حرمان من النظر في المستقبل واستشفاف الماضي :**

إن الأدائية بنفيها لإمكانية وضع نظرية علمية عن المجتمع ، تحرم الناس من النظر في المستقبل واستشفاف الماضي ، فتحول بينهم وبين تقدير الحاضر تقديراً صحيحاً. فهي تذهب إلى أن الطريق إلى التقدم الاجتماعي لا يمر عبر الصراع الطبقي والثورة الاجتماعية ، بل من خلال الحل التدريجي للقضايا الاجتماعية المنفردة ، في إطار المجتمع الرأسمالي القائم . والأدائية حين تنادي بالاكْتفاء بالإصلاحات الجزئية الصغيرة كسبيل وحيد للتقدم الاجتماعي ، تشكل الأساس النظري للنزعات الإصلاحية والانتهازية المعاصرة .

كما أن التنصل من التراث التعليمي والحضاري السابق لا يتفق مع مبدأ الاستمرار والتواصل ، وكما يقول الماركسيون إن الجديد ينشأ من القديم ، والبشرية لا تستطيع أن تقطع صلتها بالماضي والتراث كليا ، حتى يمكنها أن تقوم على الخبرة والحرية ورفع شعار الديمقراطية مع مبدأ الموضوعية . (٢)

**الذاتية المكشوفة لهذه الفلسفة :**

يقول ديوي إن الخبرة ثمرة المعاناة في داخل الفرد ، وأن الخبرة ذاتية وطالما أنها ذاتية فلا يجوز نقلها إلى الآخرين مما يجعل كل فرد جزيرة منعزلة ، وهذا يتنافى مع التواصل والموضوعية والاستمرار الذي دعا إليه ديوي . (٣) وقد شهدت الفترة الأخيرة محاولات من قبل ديوي ، وغيره من مؤسسي البرجماتية للتخلص من الذاتية المكشوفة لهذه الفلسفة ، وإعادة صياغة الأفكار البرجماتية في قالب أكثر واقعية ، ولذا فإن مثل

(١) عبد الرحمن بدوي / مدخل جديد إلى الفلسفة / ص ٤٠ / ط أولى / وكالة المطبوعات / ١٩٧٥ م .

(٢) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ١٦١ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / نفس الصفحة .



هذه المحاولات لن تؤدي إلى نتيجة ملموسة ، اللهم باستثناء الخلط بين أفكار متباينة ، الأمر الذي يدل على تفسخ المذهب البرجماتي وانحطاطه . (١)

إن البراجماتية تركز على الفرد ، وتعلو من الفردية إلى أقصى حد ، وهي بذلك تعكس الفردية الممزقة التي سادت أمريكا في القرن التاسع عشر ، وهذه الفردية بما يرتبط بها من فوضى وغموض تجعل الأفراد عاجزين عن تحمل النظام والرقابة والمهام الاجتماعية التي تتدخل في حريتها ، إن هذه الفردية هي التي جعلت أواصر قرى بينهم وبين الفيلسوف السفسطائي " بروتاجوراس " كما قلنا سابقاً ، إننا لو سلمنا بمبدأ السفسطائيين ، لكان معنى ذلك التسليم بأن حجج المجنون تعادل في صدقها حجج العاقل ، وأن أخط الحيوانات شأناً قد يكون له رأي في الكون لا يقل عن رأي الإنسان الحكيم . (٢)

### الأداتية تجعل الإنسان مصدر القيم :

أما ما يتعلق بنظرة الأداتية للقيم ، فهي تنظر إليها على أنها أمور إنسانية تنبع من صميم الحياة التي يعيشها الإنسان على ظهر هذه الأرض ، وليست أخلاقاً متعالية تفرض على الإنسان فرضاً من جهة عليا ، وبهذا الاعتقاد تخالف الأداتية الأديان السماوية . بل وتخالف الفلسفات المادية كالواقعية والماركسية والوجودية ، حيث أن هذه الفلسفات تحجب وتنكر عالم النشأة وعالم المصير ، وتجعل محور الوجود القائم ، هو الوجود المادي لا غير ، بينما الفلسفة البرجماتية وهي من الفلسفات المادية تقع تحت قيم النفاق ، لأن القيم عندها مقيدة بمقدار تحقيقها للمنفعة المقصودة منها ، فإذا لم تحقق المنفعة لا تصبح ذات قيمة . (٣)

" فالأداتية تنطلق من تصور قيمى خاص ، هو إثارة العمل على النظر ، وهذا يلزم المذهب بقيود تثقل من خطواته ، وأول هذه القيود ، الوقوف بالقيمة إلى عدها مجرد

(١) جماعة من أساتذة سوفيات / موجز تاريخ الفلسفة / ص ٦٣٢ / مرجع سابق .

(٢) راجع محمد مهران رشوان/ مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / ص ٨٦ / مرجع سابق .

(٣) راجع ماجد عرسان الكيلاني / فلسفة التربية الإسلامية / ص ٣٦٧ / ط الثانية / مكتبة هادي / مكة المكرمة / ١٩٨٨ م .

وسيلة ، مقياسها هو إحراز نتيجة ناجحة ، تعود على صاحبها بالنفع ، هذا الزعم يغض من شأن القيمة ويجعلها شيئاً من بين أشياء العالم قائماً هناك ، وعلينا العثور عليه ، ولا ريب أن نجاح الوسيلة نفسه في حاجة إلى تقويم سابق في ظل قيم سابقة ، ولا بد من مقاييس سابقة تعين النجاح أو الإخفاق لهذه الوسيلة أو تلك ، لأن النجاح نفسه تصور قيمى لا يصلح أن يكون هو نفسه مصدراً للقيم ومقياساً لها . وليس في مقدور البرجماتية أن تقدم لنا فهماً يستوعب القيم جميعاً ، لأنها هي نفسها اجتزأت منذ البداية جانب من القيمة وأقامت فلسفتها بأسرها على موقف خاص هو إيثار العمل على النظر ، أي أنها بدأت بموقف مبيت ، فهم يحللون القيم وهم قابعون داخل قيمة بعينها " (١) .

" إن القول بأن الإنسان هو مصدر القيم ، سواء أكان فرداً أم جماعة ، يؤدي بالضرورة إلى القول بنسبية القيم ، من جهة أحوال الإنسان وظروف حياته وعصره ، ويؤدي من جهة أخرى إلى القول بعدم ثباتها وتغييرها ، الأمر الذي لا يتيح ظهور منظومات قيمية متسقة وغير متعارضة أو غير متصارعة " . (٢) وهذه القيم قد تتعدد إلى درجة يصبح فيها لكل فئة من الناس وربما لكل فرد قيم معينة تناسبه تختلف عما لدي الآخرين " (٣) " وبذلك تسمح بحالة تقترب من الفوضى الأخلاقية ، وذلك لأن من الواضح أن هذه النظريات تسمح لي بالموافقة على شئ ترفضه أنت ..... كما أنك ستصادف مواقف يوصف فيها الشئ الواحد بأنه خير وشر ، مما يجعل هذين اللفظين خلواً من المعنى في نظر أي مذهب شامل للقيم " . (٤)

إن القيم في حقيقتها يرجع مصدرها إلى الله عز وجل ، فالله عالم حكيم قادر ، خالق الأشياء جميعاً ، وهو الذي أرسل رسله لهداية الناس إلى السلوك الأصوب في حياتهم وزودهم بكل ما يلزمهم من قيم يحتاجونها في هذه الحياة ، فهو واضع القيم

(١) صلاح قنصوة / نظرية القيمة / ص ٢١١ ، ٢١٢ / مرجع سابق .

(٢) عزمي طه السيد أحمد / الوجه الآخر للفلسفة " مدخل معاصر " / ص ٢٠٦ / مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق / ص ٢٠٧ / بتصرف .

(٤) هنتر ميد / الفلسفة أنواعها ومشكلاتها / ص ٣٤٦ / مرجع سابق .

ومصدرها ، فيجب أن نبحث عنها في الهداية الإلهية المتمثلة في الكتب السماوية وفي سلوك رسل الله الذين تلقوا علمهم وحياً من الله سبحانه وتعالى . فالقيم مطلقة لا تقيدها قيود الزمان والمكان والأفراد ، وهي ثابتة لا تتغير بتغير المكان أو الزمان أو الأحوال أو الأشخاص . (١)

فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، والقيم الروحية في الإسلام تحتل مكانة أكبر من القيم المادية ، لأنها تساعد على تحقيق الهدف الأكبر الذي من أجله خلق الله الإنس والجن ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " . (٢)

### الأدائية ترفض الأديان السماوية وتستبدلها بدين الإنسانية :

" حاول ديوي أن يضع للبشرية ديناً موضوعاً ، فلم يعجبه الدين النصراني السائد في العالم الغربي ، وفي نفس الوقت لم يكلف نفسه بدراسة الأديان السماوية الموجودة بالفعل مثل اليهودية والإسلام ، وهذا كان شأن كثير من الفلاسفة الغربيين سواء في أوروبا أو في أمريكا ، فمعظم فلاسفة البرجماتية إن لم يكن جميعهم رفضوا الميتافيزيقا لأنها غيبية ، ثم يعودون إلى قبول الدين ليس لأنه أمر واجب الإيمان به ، ولكنهم يقبلونه لأنه يحقق لديهم نفعاً ما مثل الراحة النفسية والشعور بالسعادة . إلا أن مجرد تفكيرهم في وضع دين إنساني كفيل بإخراجهم عن حظيرة الإيمان إلى غيبيات الكفر والفسوق " . (٣)

" إن الإنسانية في جوهرها العام ، هي دعوة للإنسان أن يعيش حياته ابن يومه ... جاعلاً نصب عينيه أن يعيش حياته المادية بكل ما يجده ، ضارباً بالقوانين التي تحد من ارتكاب الشهوات جانباً ، وأن لا ينظر إلى الأمور الروحية الغيبية ، ولا يتأثر بما يقال له من أنه سيحاسب على كل أعماله الدنيوية أمام الله تعالى ، فليس لك إلا ما تمتعت به قبل موتك ، فلا حساب ولا جزاء في مفاهيم دعاة الإنسانية ، وهم حينما يقرون هذا

(١) عزمي طه السيد أحمد/ الوجه الآخر للفلسفة " مدخل معاصر " / ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ / مرجع سابق .

(٢) سورة الذاريات / آية " ٥٦ " .

(٣) إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ص ١٦٦ / مرجع سابق .

الكلام نقول لهم : بكل تأكيد أنهم يغالطون أنفسهم ، وهم يعلمون أنهم في فراغ وأن الأمر جد ، ولا يمكن أن تكون الحياة كذلك " (١)

" ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " (٢) وهم متأكدون أن حياتهم لا تختلف عن حياة سائر البهائم ، ولولا الظلم وحب العلو ، لرجعوا إلى الحق ، ولنظروا إلى ما هم فيه بأنه عبث وفوضى ، لا تقرها العقول ولا الفطرة السليمة ولكنه العناد والاستهتار والبغي " . (٣)

قال تعالى : " فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً " . (٤)

ويقول الله تعالى : " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم " . (٥) وغيرها كثير من الآيات التي تبين للناس ، خاصة أهل الكتاب ، أنهم مدعوون إلى تصحيح عقائدهم والإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره حلوه ومره .

إن الكفر والإلحاد ظاهر في هذا المعتقد ، ففيه إنكار لوجود الله ، وكفر بالأنبياء والمرسلين ، وإنكار لحقيقة وجود الإنسان ، وإسناد خلقه إلى الطبيعة ، ولو سئلوا عن تلك العمليات المستمرة لانقطعوا وأجابوا بما يدل على جهلهم وحمقهم . ونقول لهم :

(١) غالب على عواجي / المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها / ص ٨٣٢ ، ٨٣٤ / مرجع سابق .

(٢) سورة النمل / الآية " ١٤ " .

(٣) غالب علي عواجي / المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها / ص ٨٣٤ / مرجع سابق .

(٤) سورة النساء / آية " ١٧٣ " .

(٥) سورة المائدة / آية " ١٥ ، ١٦ " .

إن الدين والإيمان بالله لا يزال جديداً على مر الدهور رغم أنوفهم وسيبقى إلى يوم القيامة . ونقول لهم أيضاً إذا كان الدين يتركب من تجارب ، فلماذا لم يدعو النبوة كلهم ، وكيف قام على أشخاص معدودين ، تحوطهم عناية الله وتأييده ، وهل يعرف الدين بالتجارب . (١)

كما أن قول ديوي بالفرقة بين الدين والتدين قول يجنح نحو الثنائية والازدواجية فالدين والتدين واحد ، فالدين ينسب إلى الشريعة السماوية التي أرسلها الله تعالى على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وما بها من شرائع وعبادات ومعاملات وغيرها . ومن يؤمن بها ويعمل بها صار متديناً . فهو دين واحد ومتدينون كثيرون ، ولا سبيل للحديث عن أديان كثيرة بعدد البشر كما أراد ديوي . (٢) ورغم كل ما قاله ديوي عن الدين ، يعود مرة ثانية فلا يرى مانع من قبوله إذا أفضى إلى منفعة " . (٣)

ويرد عليه د " توفيق الطويل " قائلاً : " إن هذا المذهب ينتهي بجعل المبادئ الأخلاقية والمعتقدات الدينية ، مجرد وهم وخداع وضلال باطل ، فإن الاعتقاد بالله إذا كان مرجعه إلى تقدير أثره في دنيا الواقع ، دون اكتراث بحقيقة الإيمان من الناحية الموضوعية الخالصة كان هذا الاعتقاد احتيلاً وضلالاً " . (٤)

### الشريعة الإسلامية جاءت لخير الناس ونفعهم :

إذا كان الفكر الغربي قد حاول أن يعالج مشاكل البيئة والإنسان عنده ، ويرسم لذلك خططاً للفكر والسلوك فقد عالج ذلك بأسلوب بعيد عن أنوار الوحي ، ولذلك جاء بنظريات وحلول كلها تخبط واضطراب ، ثم أخذ يخدع أمم الشرق بكلمات براقية ، مثل المنفعة ، الحرية ، الواقعية . والبراجماتية أوقعت الناس في شركها بالقول بالمنفعة

(١) راجع غالب علي عواجي / المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها / ص ٨٣٢ ، ٨٣٤ / مرجع سابق .

(٢) راجع إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / ج ١ / ص ١٦٦ / مرجع سابق .

(٣) راجع توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ / مرجع سابق .

(٤) المرجع السابق / نفس الصفحات .

والحرص على مصلحة الإنسان ، وتلك غاية تهبوا إليها نفوس كثيرة . ولكن أي مصلحة تلك التي تنادي بها البراجماتية ؟ هل هناك مصلحة في جحد الإلوهية والرسالة ؟ (١) " أما الإسلام فقد جاء لخير كل الناس ، ومصالح كل الناس ، ونفع كل الناس ، خير لا شرف فيه ومصالح لا جور فيها ، ونفع يسوده الإيثار والمحبة وطهارة الوسيلة والغاية . ولقد أثبت الاستقراء أن أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على المصلحة الإنسانية " . (٢)

وطلب الإسلام أن يشيع هذا الخير بين الناس ، وألا يتحرك المسلم من منطلق مادي ، خذ ، وهات . فأين الإيثار إذن ؟ وأين التعاون وبذل الفضل ؟ لقد دفع الإسلام أتباعه إلى صنائع المعروف وعمل الخير ، وطلب منهم ألا ينتظروا الأجر إلا ممن لا تضيع عنده الصنائع " . (٣)

قال تعالى : " وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون " . (٤) وقال أيضاً : " لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً " (٥) وأيضاً : " فاستبقوا الخيرات " . (٦) وأيضاً قوله تعالى : " وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون " . (٧)

(١) راجع جمعة الخولي / الاتجاهات الفكرية المعاصرة / ص ٦٩ / مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق / نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق / ص ٧١ .

(٤) سورة الشورى / آية ٣٦ .

(٥) سورة النساء / آية ١١٤ .

(٦) سورة البقرة / آية ١٤٨ .

(٧) سورة البقرة / آية ٢٧٢ .

ولقد جهد الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم لإشاعة الخير والإيمان في جنبات الأرض دون انتظار عون من أحد ، إلا من الله وحده . وأسمع كل واحد منهم هذه العبارة " وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين " . (١)

وجاء خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ليؤكد هذه المعاني في دنيا الناس . يقول عليه الصلاة والسلام : " من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له " (٢) ويقول أيضاً : " لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق " (٣) . وقال أيضاً : " صنائع المعروف المعروف تقي مصارع السوء " (٤) .

أما مفكري الإسلام فقد كانت لهم نصوص كثيرة تؤكد أن الشريعة الإسلامية تراعي المصلحة وسوف نذكر بعضاً من هذه النصوص على سبيل المثال لا الحصر . يقول ابن القيم " إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه " . (٥)

وفي عبارة أخرى لابن القيم عن الشريعة الإسلامية يقول : " إن مبنائها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن

(١) سورة الشعراء / آية ١٠٩ .

(٢) أخرجه مسلم في المختصر / ج ٢ / ص ٢٨٣ / حديث رقم ١٠٦٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح / ج ٤ / ص ٢٦٢٦ / حديث رقم ١٤٤ .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير / ج ٨ / ص ٢٦١ / حديث رقم ٨٠١٤ .

(٥) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية / ج ١ / ص ٣١ / تحقيق نايف بن أحمد الحمد / ط أولى / دار عالم الفؤاد / مكة المكرمة / ١٤٢٨ هـ .

المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه " . (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها " . (٢) .

وأخيراً إن العقيدة الإسلامية هي منطلقنا الوحيد ، الذي تتحدد على أساسه كافة مواقفنا الإسلامية . وهكذا يتعلم المسلم من دينه تقديم النفع للآخرين ابتغاء ما عند الله بعيداً عن سياسة تبادل المنافع ، فتسود المحبة والأخوة بين الناس . هذا وبعد أن انتهينا من نقد الأدائية نتقل لاستخلاص أهم النتائج .

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بن قيم الجوزية / إعلام الموقعين عن رب العالمين / ج ١ / ص ٤١ / تحقيق وتعليق أبو عبيدة مشهور بن حصن آل سليمان / شارك في التخرير أبو عمر أحمد عبد الله أحمد / دار بن الجوزي للنشر والتوزيع / المملكة العربية السعودية / ١٤٢٣ هـ .

(٢) تقي الدين أبو العباس بن تيمية الحراني الحنبلي / منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة القدرية / ج ١ / ص ٥٥١ / تحقيق محمد رشاد سالم / ط أولى / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م . راجع أيضاً أبو حامد محمد بن محمد الغزالي / المستصفى / ج ١ / ص ١٧٤ / تحقيق عبد السلام عبد الشافي / ط أولى / دار الكتب العلمية / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .



## الخاتمة والنتائج

لا شك أن ديوي صاحب فلسفة متعددة الجوانب ، عرض فيها آراءه ، وقد حاول خلالها الربط بين النظر والعمل ، وتوثيق الصلة بين العلم والتطبيق ، ودراسة الإنسان في الموقف وهي نظرة شملت الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع في آن واحد ، حاول إبراز علاقات التبادل القائمة بين الذوات الإنسانية ، وتأكيد التأثير والتأثر وتفاعل الإنسان مع بيئته الخارجية سواء كانت اجتماعية أم طبيعية ، والتأكيد كذلك على مفهوم الخبرة بصورة عملية نشطة تعتمد على استجابات كلية وليست جزئية للجهاز العضوي . ويمكن أن نعدد النتائج التي تم التوصل إليها من خلال دراسة هذا البحث في النقاط التالية :

١- إن الأدائية عند ديوي ليست فلسفة تتعلق بالسؤال عن : هل الكون معقول ؟ أو هل الكون خير ؟ ولكنها منهج سلبي لاكتشاف الأفكار الخاطئة وهي التي ليست لها آثار عملية .

٢- المعرفة عند ديوي ذات ضرب من الفعل العملي ، ومصدرها يرجع إلى الطبيعة ، كما أن أدواته محاولة لتأليف نظرية منطقية دقيقة في التصورات والأحكام والاستدلالات بالانتباه إلى وظيفة الفكر في تحديد النتائج المستقبلية تحديداً دقيقاً . وهذا يتنافي مع الإسلام ، فالمعرفة مصدرها الأول هو الله . قال تعالى : " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً " .<sup>(١)</sup>

٣- الأدائية أغفلت جانب الروح ، وقطعت أي صلة بين الإنسان وبين خالقه ، وهذه نظرة قاصرة فالإنسان مكون من جانب مادي وجانب روحي ، وقد أعلى الإسلام من جانب الروح . لذلك فهي لا تصلح لأن تكون منهجاً في الحياة .

٤- يرى ديوي أن الفلسفة يجب أن تغير من طبيعتها وتتخذ لها طبيعة عملية وتصير فعالة تجريبية ، حتى تتمكن من تحقيق هدفها ، وهو إحداث التغيير والتحسين في أمور حياتنا العملية . وهذا يقودنا في النهاية إلى هدم الفلسفة من أساسها .

(١) سورة النساء / آية " ١١٣ " .

٥- يرد ديوي الأحكام الأخلاقية إلى البيئة الاجتماعية ، وهي لديه ظاهرة اجتماعية من باب الواقع لا من باب ما ينبغي أن يكون . وهذا يتنافي تماماً مع نظرة الإسلام للقيم والأخلاق ، والتي تعتبر تشريعاً للمسلمين ، بل والهدف الأساسي من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : " إنما بعثت لأنتم مكارم الأخلاق " .<sup>(١)</sup>

٦- الخبرة التجريبية عند ديوي ترى أن القيم متطابقة مع المصالح التي هي ثمرة النشاط الموجه بذكاء . وهذه النظرة تحول المجتمع إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف . في حين أن الشريعة الإسلامية جاءت لمصلحة الناس جميعاً حتى تسود المحبة والإيثار والتعاون .

٧- ذهبت الأدائية إلى أن الغاية تبرر الوسيلة ، حيث يسعى كل إنسان إلى تحصيل ثمرات مرضية بأي وسيلة ، حتى ولو كانت على حساب مصلحة الآخرين ، وهذا المبدأ مرفوض في الإسلام لأنه لا يجوز الوصول إلى الغاية الشريفة بالوسائل الخسيسة ، ولا مكان في تعاليم الإسلام لهذا المبدأ الخبيث .

٨- الخير عند ديوي ليس مثلاً متعالياً ، ولكنه ناشئ من الخبرة ذاتها ، فديوي يدعو لأن تكون الخبرة مرشداً للعلم ومرشداً للحياة الأخلاقية . وهذه نظرة تخالف الإسلام ، لأنها تؤدي في النهاية إلى القول بنسبية الحقائق والأخلاق . كما تؤدي إلى الجمع بين المتناقضات . .

٩- لا يرفض ديوي العقل ولا المعرفة العقلية ، ولكنه يوظف هذه المعرفة من خلال الخبرة الإنسانية . وهذا مرفوض لأن الخبرة ذاتية ، وهذا يتنافي مع مبدأ الاستمرار الذي دعا إليه ديوي .

١٠- الحق عند ديوي عملية إجرائية ترتبط بالموقف الذي لا بد من مواجهته لحل الإشكال ، كما أن الحقيقة ليست ثابتة ولا نهائية ، وإنما هي عملية تطويرية تمثل شكلاً من أشكال التكيف المتبادل بين الكائن الحي وبيئته . والحقيقة أن

(١) أخرجه أحمد في المسند / ج ١٨ / ص ١٣٧ / حديث رقم ٨٥٩٥ ، وأخرجه مالك في الموطأ / ج

الخير كالحق مستقل عن الإنسان ، والحقيقة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو المواقف .

١١- يؤمن ديوي بضرورة التغيير في العلوم الإنسانية ، تماماً مثل العلوم التجريبية ، مع الأخذ في الاعتبار أن الخبرة في العلوم الإنسانية تأتي في المقام الأول .

١٢- البراجماتية والأداتية التجريبية تبرز أهمية الفرد وتضعه في الاعتبار الأول ، فالفرد حامل الفكر المبدع وصانع العمل وصاحب تطبيقه ، بل هو مصدر القيم ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى نسبية القيم ، وعدم ثباتها . فالقيم ثابتة لا تتغير حيث أن مصدرها الحق تبارك وتعالى .

١٣- " خطورة هذا المذهب الفلسفي على العقيدة ، فهو مذهب يحنذ إلغاء دور العقل في الإفادة من معطيات النقل أو الوحي ، وقد رأينا في واقعنا المعاصر كيف أفلست الذرائعية وعجزت عن إسعاد الإنسان بعدما أدت إلى تأجيج سعار المادية ، وأهدرت القيم والأخلاق السامية التي دعت إليها جميع الأديان السماوية " .<sup>(١)</sup>

١٤- صارت التعاليم السماوية تؤول وتكيف على حسب مصلحة الشخص ومنفعته ، أما الدين الحقيقي الذي يحكم سلوك الناس فهو منفعتهم ، وأما ربهم المعبود فهو المال .

١٥- وأخيراً الأداتية فلسفة أمريكية لا تصلح إلا للمجتمع الأمريكي أو مجتمع له طبيعة المجتمع الأمريكي . ولقد سيطرت هذه الفلسفة على أخلاق الناس ، فاهتزت الأخلاق واضطربت الموازين وسيطرت المنفعة والأنانية ، وتحول الناس إلى ذئاب بشرية .

١٦- ضرورة تربية الأجيال على الاعتزاز بدينهم وعقيدتهم ، وأن ما يرسمه لهم هو خير نظام على وجه الأرض ، كيف لا وهو من عند أحكم الحاكمين .

(١) د . مانع بن حماد الجهني / الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة / ج ٢ / ص ٨٣٤ ، ٨٣٥ / ط الخامسة / دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

قائمة المراجع

- ١- إ. ف. بلا يبيرغا / المعجم الفلسفي المختصر / ترجمة توفيق سلوم / دار التقدم / ١٩٨٧ م .
- ٢- إ. م. بوشنسكي / الفلسفة المعاصرة في أوروبا / ترجمة عزت قرني / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / عالم المعرفة / ١٩٩٠ م .
- ٣- إبراهيم إبراهيم ياسين / مدخل إلى الفلسفة العامة / ط أولى / دار ومكتبة الإسراء للطبع والنشر والتوزيع / كلية الآداب - جامعة القاهرة / ٢٠٠٥ م .
- ٤- إبراهيم مصطفى إبراهيم / نقد المذاهب المعاصرة / دار الوفاء للطباعة والنشر / الإسكندرية .
- ٥- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بن قيم الجوزية / إعلام الموقعين عن رب العالمين / تحقيق وتعليق أبو عبيدة مشهور بن حصن آل سليمان / شارك في التخريج أبو عمر أحمد عبد الله أحمد / دار بن الجوزي للنشر والتوزيع / المملكة العربية السعودية / ١٤٢٣ هـ .
- ٦- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية / تحقيق نايف بن أحمد الحمد / ط أولى / دار عالم الفؤاد / مكة المكرمة / ١٤٢٨ هـ .
- ٧- أحمد فؤاد الأهواني / جون ديوي / ط ١٩٦٠ م .
- ٨- إميل برهيه / تاريخ الفلسفة " الفلسفة الحديثة ١٨٥٠ - ١٩٤٥ / ترجمة جورج طرايشي / ط أولى / ١٩٨٧ م .
- ٩- أندريه لالاند / موسوعة لالاند الفلسفية / ط أولى / ترجمة خليل أحمد خليل / منشورات عويدات / بيروت - باريس / ١٩٩٦ م .
- ١٠- بول موي / المنطق وفلسفة العلوم / ترجمة فؤاد حسن زكريا / دار نهضة مصر .

- ١١- بيتز كاز / تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام / ترجمة حسني نصار / مراجعة مراد وهبة / مكتبة الأنجلو المصرية / متدى سور الأزبكية .
- ١٢- تقي الدين أبو العباس بن تيمية الحراني الحنبلي / منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة القدرية / تحقيق محمد رشاد سالم / ط أولى / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٣- توفيق الطويل / أسس الفلسفة // ط الثالثة / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٨ م .
- ١٤- توفيق الطويل / فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها / ط الرابعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨١ م .
- ١٥- توفيق الطويل / مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق / ط أولى / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٣ م .
- ١٦- جلال الدين سعيد / معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية / دار الجنوب للنشر / فلسطين / ٢٠٠٤ م .
- ١٧- جمعة الخولى / الاتجاهات الفكرية المعاصرة / ط أولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
- ١٨- جميل صليبا / المعجم الفلسفي / دار الكتاب اللبناني - بيروت / ١٩٨٢ م .
- ١٩- جورج سانتيانا / مولد الفكر وبعوث فلسفية أخرى / ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين / دار الآفاق الحديثة / بيروت .
- ٢٠- جورج طرايشي / معجم الفلاسفة " الفلاسفة - المتكلمون - اللاهوتيون - المتصوفون " / ط الثالثة / دار الطليعة للطباعة والنشر / بيروت / ٢٠٠٦ م .
- ٢١- جون ديوي / البحث عن اليقين / ترجمة أحمد فؤاد الأهواني / تقديم محمد مدين / المركز القومي للترجمة / ٢٠١٥ م .

- ٢٢- جون ديوي / الديمقراطية والتربية / ترجمة منى عfraوي - زكريا ميخائيل / ط الثانية / لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .
- ٢٣- جون ديوي / الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني / ترجمة محمد لبيب النجيحي / مؤسسة الخانجي / القاهرة .
- ٢٤- جون ديوي / الفن خبرة / ترجمة زكريا إبراهيم / دار النهضة العربية - القاهرة / ١٩٦٣ م .
- ٢٥- جون ديوي / المنطق نظرية البحث / ترجمة زكي نجيب محمود / تقديم عبد الرشيد الصادق محمودي / المركز القومي للترجمة - القاهرة / ٢٠١١ م .
- ٢٦- جون ديوي / تجديد في الفلسفة / ترجمة أمين مرسي قنديل / مراجعة زكي نجيب محمود / مكتبة الأنجلو المصرية .
- ٢٧- جون ديوي / نمو البراجماتية الأمريكية / وهي إحدى مقالات كتاب فلسفة القرن العشرين / داجوبرت د . رونز / مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة / ترجمة عثمان نوية / مؤسسة سجل العرب / ١٩٦٣ م .
- ٢٨- جون ديوي إعادة البناء في الفلسفة / ترجمة وتقديم أحمد الأنصاري / مراجعة حسن حنفي / ط أولى / المركز القومي للترجمة / ٢٠١٠ م .
- ٢٩- جون لويس / مدخل إلى الفلسفة / ترجمة أنور عبد الملك / ط الثالثة / دار الحقيقة - بيروت / ١٩٧٨ م .
- ٣٠- حسن إبراهيم عبد العال / مقدمة في فلسفة التربية " التربية والطبيعة الإسلامية " / دار عالم الكتب للتوزيع والنشر / الرياض / ١٩٨٥ م .
- ٣١- حسن محمد الكحلاني / فلسفة التقدم / مركز الإسكندرية للكتاب / ١٩٩٧ م .
- ٣٢- خير الدين الزركلي / الأعلام / ط ١٥ / دار العلم للملايين / ٢٠٠٢ م .

- ٣٣- داجوبرت د. رونز / فلسفة القرن العشرين / مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة / ترجمة عثمان نويه / مراجعة زكي نجيب محمود / مؤسسة سجل العرب .
- ٣٤- راجع أيضاً أبو حامد محمد بن محمد الغزالي / المستصفى / تحقيق عبد السلام عبد الشافي / ط أولى / دار الكتب العلمية / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- ٣٥- رالف ن. وين / قاموس جون ديوي في التربية " مختارات من مؤلفاته " / ترجمة محمد على العريان / مكتبة الأنجلو المصرية / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر / القاهرة - نيويورك / ١٩٦٤ م .
- ٣٦- زكريا إبراهيم / دراسات في الفلسفة المعاصرة / دار مصر للطباعة / مكتبة مصر / ١٩٩٨ م .
- ٣٧- زكي نجيب محمود / برتراندرسل / دار المعارف / القاهرة / ١٩٦٨ م .
- ٣٨- زكي نجيب محمود / حياة الفكر في العالم الجديد / ط الثالثة / دار الشروق / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ .
- ٣٩- زكي نجيب محمود / من زاوية فلسفية / ط الرابعة / دار الشروق / ١٤٤١ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٤٠- زكي نجيب محمود / نحو فلسفة علمية / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / ١٩٥٨ م .
- ٤١- سفر بن عبد الرحمن الحوالي / العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية / دار الهجرة .
- ٤٢- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني / المعجم الكبير / تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي / ط الثانية / مكتبة ابن تيمية / القاهرة .
- ٤٣- الشيخ عبد الله نعمه / عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة / ط الثانية / مؤسسة عز الدين - بيروت / ١٩٨٣ .
- ٤٤- صلاح قنصوة / نظرية القيمة في الفكر المعاصر / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨٦ م .

- ٤٥- عبد الرحمن بدوي / مدخل جديد في الفلسفة / ط أولى / وكالة المطبوعات / ١٩٧٥ م .
- ٤٦- عبد الرحمن بدوي / موسوعة الفلسفة / ط أولى / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ١٩٨٤ م .
- ٤٧- عزمي إسلام / اتجاهات في الفلسفة المعاصرة / ط أولى / وكالة المطبوعات - الكويت / ١٩٨٠ م .
- ٤٨- عزمي طه السيد أحمد / الوجه الآخر للفلسفة " مدخل معاصر " / عالم الكتب الحديثة / إربد - الأردن / ٢٠١٥ م .
- ٤٩- غالب علي عواجي / المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها / ط أولى / المكتبة العصرية الذهبية / ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- ٥٠- فريد شيللر / التربية الجمالية للإنسان / ترجمة وفاء محمد إبراهيم / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ١٩٩١ م .
- ٥١- فؤاد كامل / أعلام الفكر الفلسفي / ط أولى / دار الجيل - بيروت / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٥٢- لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتين / الموسوعة الفلسفية / إشراف روزنتال - يودين / ترجمة سمير كرم / مراجعة صادق جلال العظم - جورج طرابيشي / ط الثانية / دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت / ٢٠٠٦ م .
- ٥٣- ماجد عرسان الكيلاني / فلسفة التربية الإسلامية / ط الثانية / مكتبة هادي - مكة المكرمة / ١٩٨٨ م .
- ٥٤- مانع بن حماد الجهني / الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة / ط الخامسة / دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- ٥٥- مجلة البيان / محمد ناصر / مقال بعنوان شيوع الأخلاق النفعية في العصر الحديث / عدد ٢٣٨ / المنتدى الإسلامي .



- ٥٦ - مجمع اللغة العربية / المعجم الفلسفي / الهيئة العامة لشؤون المطابع /  
١٩٨٣ م .
- ٥٧ - مجموعة من الأساتذة السوفيات / موجز تاريخ الفلسفة / تقديم وترجمة  
توفيق سلوم / ط أولى / دار الفارابي / بيروت - لبنان / ١٩٨٩ م .
- ٥٨ - محمد الهادي عفيفي / الأصول الفلسفية للتربية / مكتبة الأنجلو المصرية  
/ القاهرة / ١٩٧٨ م .
- ٥٩ - محمد جديدي / فلسفة الخبرة " جون ديوي نموذجاً " / ط أولى /  
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / بيروت - لبنان / الإسكندرية /  
٢٠٠٤ م .
- ٦٠ - محمد جواد مغنية / مذاهب فلسفية وقاموس مصطلحات / دار مكتبة  
الهلال - دار الجواد .
- ٦١ - محمد خضر عوض / دراسة ناقدة للفلسفة البراجماتية في ضوء المعايير  
الإسلامية / رسالة ماجستير / قسم أصول التربية / الجامعة الإسلامية غزة /  
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٠ م .
- ٦٢ - محمد مصطفى أحمد البيومي / درجات المعرفة بين الدين والفلسفة  
والعلم / دار الفكر الجامعي / ٢٠١٠ م .
- ٦٣ - محمد مهران - محمد مدين / مقدمة في الفلسفة المعاصرة / دار قباء  
للطباعة والنشر والتوزيع / ٢٠٠٤ م .
- ٦٤ - محمد مهران رشوان / مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة / دار الثقافة  
للنشر والتوزيع / كلية الآداب - جامعة القاهرة / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .
- ٦٥ - محمود زيدان / وليم جيمس / دار المعارف بمصر / سلسلة نوابغ الفكر  
الغربي .
- ٦٦ - محمود قاسم / المنطق الحديث ومناهج البحث / ط الثانية / مكتبة  
الأنجلو المصرية / ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .
- ٦٧ - مراد وهبة / المعجم الفلسفي / دار قباء الحديثة / ٢٠٠٧ م .

- ٦٨- مراد وهبة / المعجم الفلسفي / ط الخامسة / دار قباء الحديثة للنشر والتوزيع / القاهرة / ٢٠٠٧ م .
- ٦٩- المستشار سالم على البهنساوي / تهافت العلمانية في الصحافة العربية / ط أولى / دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ٧٠- مسلم بن الحجاج النيسابوري / المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي بيروت .
- ٧١- مشهد سعدي العلاف / مقدمة في فلسفة العلم " بناء المفاهيم بين العلم والمنطق " ط أولى / دار عمار - عمان / دار الجيل - بيروت / ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
- ٧٢- مصطفى حسيبة / المعجم الفلسفي / ط أولى / دار أسامة للنشر والتوزيع / الأردن - عمان / ٢٠٠٩ م .
- ٧٣- مقداد يالجن محمد على / علم الأخلاق الإسلامية / ط الثالثة / دار الكتب العلمية للطباعة والنشر / الرياض / ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٢ م .
- ٧٤- الموسوعة الفلسفية المختصرة / ترجمة فؤاد كامل - جلال العشري / عبد الراشد الصادق / دار القلم بيروت - لبنان .
- ٧٥- نبيل موسى / موسوعة مشاهير العالم " أعلام علم النفس - أعلام التربية والطب النفسي والتحليل النفسي / ط أولى / دار الصداقة العربية / بيروت / ٢٠٠٢ م .
- ٧٦- نوري جعفر / جون ديوي / مطبعة الزهراء / بغداد / ١٩٥٤ م .
- ٧٧- هربرت شنيدر / تاريخ الفلسفة الأمريكية / ترجمة محمد فتحي الشنيطي / مكتبة النهضة المصرية - القاهرة / ١٩٦٤ م .
- ٧٨- هربرت ماركيز / العقل والثورة / ترجمة فؤاد زكريا / ط الثانية / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٩٧ م .

- ٧٩- هنتر ميد / الفلسفة أنواعها ومشكلاتها / ترجمة فؤاد زكريا / ط الثانية / دار نهضة مصر للطباعة والنشر / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر / القاهرة - نيويورك / ١٩٧٥ م .
- ٨٠- ول ديورانت / قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي " حياة وآراء أعظم رجال الفلسفة في العالم / ط السادسة / ترجمة فتح الله محمد المشعشع / مكتبة المعارف - بيروت / ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م .
- ٨١- وليم جيمس / البراجماتية / ترجمة محمد العريان / دار النهضة العربية / القاهرة / ١٩٦٥ م .
- ٨٢- يحيى هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ط التاسعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨٩ م .
- ٨٣- يحيى هويدي / مقدمة في الفلسفة العامة / ط التاسعة / دار الثقافة للنشر والتوزيع / ١٩٨٩ م .
- ٨٤- يعقوب فام / البراجماتيزم / أو مذهب الذرائع / ط الثانية / دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع / ١٩٨٥ م .
- ٨٥- يمني طريف الخولي / فلسفة العلم في القرن العشرين " الأصول - الحصاد - الآفاق المستقبلية " / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / الكويت / ط ٢٠٠٠ م .
- ٨٦- يوسف كرم / تاريخ الفلسفة الحديثة / مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة / وطبعة مكتبة الدراسات الفلسفية / ط الخامسة / دار المعارف .